وليد الهودلي



ستائر العتمة

رواية

تسعون يوماً
من المواجهة الملتهبة

وليد الهودلي

ستائر العتمة

تسعون يوماً من المواجهة الملتهبة

في زنازين بني صهيون

المؤسسة الفلسطينية للارشاد القومي

٢٠٠٣

ستائر العتمة

وليد الهودلي

الطبعة الثالثة 2003

تمت الطبعة الأولى والثانية تحت إشراف وتنفيذ

المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي

رام الله – فلسطين ص.ب 952

الإشراف والتنفيذ:

المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي

الإخراج والمونتاج:

مروان العلان

تصميم وتنفيذ الغلاف:

نغم الحلواني

صدر للمؤلف

1- مدفن الأحياء من إصدرات بيت الشعر الفلسطيني.

2- مجد على بوابة الحرية من إصدرات دار البشير.

3- الشعاع القادم من الجنوب ...... الدار الإسلامية - بيروت.

4- حكايات العم عز الدين .... مركز يافا للنشر والتوزيع.

5- ستائر العتمة .... الطبعة الأولى والثانية المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي.

وليد الهودلي

ستائر العتمة

تسعون يوماً من المواجهة الملتهبة في زنازين بني صهيون

كُتبت هذه الرواية في وقت غيَّر فيه الكيان الصهيوني أساليبه في التحقيق من العنف الجسدي والنفسي إلى العنف النفسي، فقط إلاّ في حالات خاصة، تستدعي استصدار إذن خاص بها لممارسة التعذيب الجسدي معها.

من المؤكد أن هذا القرار قد دُرس جيداً وروعيت فيه مصلحتهم من عدة نواحٍ.. وبالتالي فهو قابل للتغيير أو العودة للأسلوب القديم إذا دعتهم مصلحتهم لذلك..

٢٠٠١/٣/٢٥

إهداء وشكر..

للأخوين الأستاذين الفاضلين
نضال زلوم وإبراهيم نواهضة

على ما أسهما به من جهود مشكورة في النقد والتقويم . .
ولكل الأخوة الأفاضل في سجني عسقلان و«هدريم» بما لهم من فضل في اخراج هذه القصة الواقعية من قلب المحنة وصميم الواقع الأليم . .

الفهرس

تقلّبات زنزانة

أصبحت السيارة المرصودة في دائرة الهدف.. تهيأ الظرف على أكمل وجه.. تماماً كما هو مرسوم.. أرخى الليل ستائره السوداء.. اختفى من الوجود كل شيء.. لم يعد هناك شاهد إلاّ الله.. اختفى البشر والشجر والحجر في ظلمة هذا الليل البهيم.. الصمت المطبق لا ينال منه شيئا سوى زفير سيارتين وأنفاسنا المتلاحقة وطرقات القلوب يعلو وجيبها.

بعد عدة منعطفات على طريق نابلس - رام الله، بسطت لنا الطريق نفسها.. أصبح التجاوز ممكناً.. أخرجنا فوهات بنادقنا من النوافذ.. بندقية أطلت برأسها من نافذة المقعد المجاور للسائق.. والثانية من النافذة الخلفية.

«جاهزين يا شباب؟» نبرة حاسمة،

«جاهزين» قلت لسائقنا الهمام إبراهيم،

«شدِّ، توكلوا على الله..»

ويا لها من لحظات عظيمة يتربع فيها صوت الرصاص على رؤوس الظالمين.. أصبحت سيارتنا بمحاذاة سيارتهم.. كتلة الحقد التي تسير على أربع عجلات تتناوشها رشقات بنادقنا. نبيل يحسن التصويب.. أصاب السائقَ المستوطنَ في مقتل.. انحرف عن الشارع، وراح يهوي في الوادي المحاذي.. تضرجوا بدمائهم، وخرّ عليهم سقف أحقادهم الذي بنوه من أشلاء شعبنا.

إنه لأمر رائع يا عامر.. عملية ناجحة ومباركة، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟! كيف أوصلتهم تحرياتهم إلى اعتقالنا؟! كيف وقعنا بين أيديهم، رغم كل الاحتياطات والتدابير التي حسبنا حسابها ألف حساب؟! أين ذهبت الخبرات الأمنية التي حفظتها في حبستي الطويلة عن ظهر قلب؟!

كان عامر يتقلّب في زنزانته، كمن وقع صريعاً لألم أضراسه.. يعيد ترتيب مجريات الأمور التي أودت به إلى هذا المصير.. إنّه مصير رهيب يقضُّ مضجعه، ويخرج من نفسه كلّ أحزانها.. أن تعود رحلة الأسر والقيد مرّة أخرى.. إنها طامّة كبرى لم أكن أقدرها حق قدرها، بداية الحبسة الأولى.. أما وقد عددت خمس سنوات وراء القضبان بكل ساعاتها ودقائقها.

كنت أتنفس الصعداء، كلما انقضى يوم، وأقول بملء صدري: وأفل يوم.. ما زلت أذكر الأيام الأخيرة، كان أحدها كأنه صخرة تتزحزح عن صدري.. ولم أكن أتصوّر نفسي ولو في كوابيس الأحلام، أعود ثانية.. أتنفس هواء الحرية، ثم أعود ثانية إلى هذا الهواء الثقيل؟! وليتها تكون خمس سنوات.. إنه – لا سمح الله – المؤبد.. ستكون طامّة ما بعدها طامّة.. هذا مستحيل.. مستحيل بحول الله وقوته، لن أمكّنهم من أي

اعتراف ولو قطّعوني إرباً إرباً..».

«ولكن كيف وصلوا إلينا؟! كيف استدرجونا من منطقة «أ» إلى منطقة «ج»؟! أعد يا عامر في ذهنك تسلسل الأحداث بهدوء.. ارجع بصرك المرّة تلو الأخرى، لعلك تقف على أخطاء استطاعوا من خلالها مسك طرف الخيط.. ولكنك الآن في الزنازين والمحققون، كما تعرف حق المعرفة، يريدون منك أن تحصر نفسك ذهنياً ونفسياً في الدائرة التي يبغون الوصول إليها.. وهم في الوقت نفسه يسعون إلى إرهاقك نفسياً.. النتيجة أنك تصل إلى حالة من عدم التركيز والضعف النفسي، فيقتحمون عليك دائرتك المحرّمة، وأنت في أضعف حالاتك، فينزلق اللسان بأول كلمة.. عندئذ تنفرط المسبحة وتكتمل عندهم القصة.. لذلك انتبه، واخرج من هذه الدائرة.. أنت لم تفعل شيئاً ولم تر شيئاً.. أنت رجل مسالم، قرّرت أن تعيش حياتك بعد خروجك من السجن، تماماً كما يفعل الآخرون..».

ويغيب عامر، طويلاً أو قصيراً، لا يدري، ولكنه سرعان ما يعود إلى المربع الأول.. «كيف وصلوا إلينا؟! عد يا عامر إلى تسلسل الأحداث، فأنت بحول الله أقوى من أن يضعفوك.. أنا واثق من قوة صمودي.. إنه المؤبد يا عامر.. آهٍ، آهٍ.. بأي وجه أعود إلى السجن، وأنا أحمل على كاهلي المؤبد.. ماذا أقول لأصحاب الخبرات الاعتقالية والأمنية، وقد كنت أحسب نفسي أحدهم أو من أعلاهم شأناً.. ماذا أقول لأمك التي حفيت قدماها وهي تطارد عليك من سجن إلى آخر؟ ماذا تقول لزوجتك؟ لإخوتك، لإخوانك.. لا، لا، إنها صورة لا أستطيع تصورها.. أن أرى أمي وزوجتي ثانية، تتقاسمان وجهي الذي يرسم الحديد عليه مربعاته.. أن أشهد ولدي، الذي حوّشته بعد خمس سنوات، وهو يكبر ويشبّ،

وأنا لا ألمس فيه إلاّ أصابعه الصغيرة، وهو يدسّها في ثقوب شبك الزيارة؟! يا للفظاعة!! تعود سيرتك الأولى يا عامر، وكأنك لم تخلق إلاّ للسجون.. يا الله.. عونك ربي على أن لا أتصوّر شبح هذه الصورة اللئيمة.. صورة السجن والسجّان.. على كلٍ، هذا يترتب على صمودك هنا.. إن لم تصمد فليس لك إلا هذا المصير القاتل، «وفي ستين داهية» ولكنني متأكد من صمودي بإذن الله..»

بعد خروجي من السجن كان الوضع على الأرض قد تغيّر تماماً.. وجدت السلطة الفلسطينية تبسط نفوذها بتواجد أمني قوي على مناطق تسمى «أ»، وهناك مناطق «ب»، ما زالت السيطرة الأمنية فيها للاحتلال الصهيوني، ومناطق «ج» بسيادة كاملة للاحتلال.. والمفاوضات تسير وتتعثر، ثم تعود لتراوح في ذات المكان.. كانت الأحوال قد تبدلت، وانقلبت رأساً على عقب.. ضعفت قضية المقاومة، ومجابهة الاحتلال، أصبحت على الهامش بعد أن كانت في صلب الاهتمام الفلسطيني العام.

وصلت الأمور إلى نهاية النفق بسرعة.. انفجرت الأوضاع في وجه الاستهتار الصهيوني، والاستخفاف بطموحات وآمال الشعب الفلسطيني.. واشتعل صاعق برميل البارود، عندما دنس زعيمهم الأرعن «شارون» ساحات المسجد الأقصى.. وانطلقت بعد ذلك بما أصبح معروفاً بـ «انتفاضة الأقصى».. لم تدفعني الإنتفاضة للعمل، إذ كنت أتشكك في أهدافها.. أقول لعلّ الأمر من أجل خدمة أهداف تفاوضية.. كم هو قاسٍ أن تضحّي بروحك يا عامر، بغية إسناد ظهر عملية سياسية.. إن لم يكن الفداء للتحرير الكامل من قبضة الاحتلال، فإنه لا يروق لي قطعاً.. هل تراني بعد هذه المسيرة الطويلة في الفهم والتحليل السياسي،

أسلم قيادي للرمال السياسية المتحركة..؟! يجب أن تنسجم تحركاتي مع أهداف سياسية واضحة، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالروح.. لذلك فقد التزمت الصمت، ولم أبد حراكاً مع هذه الانتفاضة.

تصاعدت الأحداث.. أخرج اليهود كل أحقادهم، لم تعد المسألة لعبة سياسية، وحتى لو كانت، فإنّ الاستفزاز بلغ أوجه.. أصبح القتل والإجرام يُمارس كل يوم.. أرواح الشهداء تصعد، ودماء الجرحى تسيل.. الدمار وإهلاك الحرث والنسل.. باختصار شديد، لم يعد الصمت محتملاً.. كان لا بدّ لي من التشمير عن ساعد الجدّ. غلت النخوة ومشاعر الإيمان والجهاد في صدري.. وظلّت أفكاري في مخاض عسير، ثم أنجبت قراراً، نسخ القرار الذي دفعني إلى الاسترخاء، والقاء السمع لزينة الحياة الدنيا ومتاعها الفاني.. قرّرت من جديد العودة إلى مقاومة الاحتلال، ودخول ساحة المواجهة بكل ما أوتيت من قوة... ولكن كيف؟! هل أشارك في التظاهرات ورفع الأعلام وقذف الحجارة! هل مثلي ترضيه هذه المشاركة الفاترة، والدماء تسيل والأشلاء تتناثر؟! حزمت أمري على العمل النوعي.. العمل الذي يؤلم الاحتلال، ويقضّ مضجعه.. أخرجت كل خبراتي المخبوءة في هذا المجال.. العمل على أصوله.. تنظيم وإعداد وتخطيط، ثم تنفيذ بمهارة عالية، دون الوقوع في أي خطأ، مهما كان صغيراً، ومع كل هذا، ها أنذا في الزنازين، في براثن المخابرات، كما الطائر الحريص حينما يقع في شباك الصياد.. يا إلهي أين كان الخلل؟!

ولكن يا عامر، لا تتعجل، وتفترض وجود خلل.. قد تكون اعتقالات عشوائية!! عشوائية طالتنا نحن الثلاثة؟! لو كان التحقيق على خلفية عمل عسكري ما كان بهذا البرودة!! معتقل منذ أربع وعشرين ساعة،

ولم أتشرف إلاّ بجولة تحقيق واحدة.. أربع أو خمس ساعات من الأسئلة المتناثرة، ثم دفعوا بي إلى هذه الزنزانة، كي أضرب أخماسي بأسداسي على راحتي.. لمَ هذا الهدوء المصطنع؟! أهو الهدوء الذي يسبق العاصفة الهوجاء؟ أتذكر العاصفة التي استقبلوك بها في اعتقالك القديم: كانت جولة سريعة لم تتعد ربع ساعة من الكلام الهادئ، ثم بدأت الحفلة الصاخبة.. كشّروا عن أنيابهم، وكانت أياماً عصيبة من العنف والشبح. سبعون يوماً خرجت منها بهيكل عظمي، نحل عنه الشحم واللحم، وقد اشتدت عليّ آلام ظهري، وتخلخلت فقرات رقبتي من أثر الشبح.. أما هذه المرّة، فها أنت يا عامر، تضع رِجلاً على رِجل، وترتع وحدك في هذه الزنزانة.. هل تراهم خبروا صلابتي في التحقيق، فأرادوا أن ينتهجوا معي أسلوباً آخر غير أسلوبهم الأول؟ هل يتخلى الذئب عن أنيابه؟ لقد سمعت عن إحداث تغييرات جوهرية في أساليب التحقيق، وبأن قراراً قد صدر من محكمتهم العليا، بعدم استخدام العنف.. لم أكن أصدق ما سمعت.. كيف سيصلون إلى الاعتراف دون أن يرونا نجوم الظهر والعصر.. هل بإقعادي في الزنزانة يتصوّرون أن أنبس لهم ببنت شفة.. يا لهم من أغبياء!!

هذه الزنزانة ضالتي منذ زمن بعيد.. كم كنت أتوق للجلوس مع نفسي، عندما كنت في السجن في غرفة يزيد عدد قاطنيها عن عشرين.. يا لكم من أغبياء.. إنها خلوة أخلو بها مع ربي.. أتنقّل من فكرة إلى أخرى، وأقلّب دفاتري القديمة والحديثة.. صدقاً، الزنزانة كانت قديماً، خانقة للنفس والروح.. يأتون بك من بعيد، حيث فضاء الحرية الواسع، ويحشرونك بين جدران ضاغطة وخانقة.. هذا قديماً، أما اليوم فهي متعة روحي، أنفع بها قلبي، وأدخل بها ميدان فكري.. وها هم يفصّلونها

حسبما أريد.. فحتى يتسنى لي تركيز الفكرة، وتجميع مشاعر القلب، لا بدّ من غلق النوافذ، فلا يشرد البصر بعيداً، ولا يتشتت الذهن.. أربعة جدران دون أية نافذة.. استعاضوا عنها بمروحةٍ في السقف، يشغلونها حسب أهوائهم الفاسدة.. ثم تجد في إحدى زواياها مقعداً لقضاء الحاجة مع سطل ماء.

ها أنت قد ابتعدت يا عامر عن جو السؤال: كيف وصلوا إلينا؟! لقد كان اختيارك للعناصر التي ستعمل معك اختياراً في غاية الدقة والإحكام.. لم تتوسع أكثر من اللازم.. كنا ثلاثة.. خلية مغلقة لا يعرف عنها أحد.. نبيل طالب جامعي، ذكي، قوي الشخصية، واثق من نفسه ذو همّة عالية.. لم يسبق له أن دخل السجون، أي أنه «غير محروق» أمنياً.. لا يثير فضول العيون الماكرة.. مددته بخبراتي، وصقلت ذهنه بتجربتي، وهيأته لتحدي آلة الإجرام في معركة التحقيق على أكمل وجه. إبراهيم، سائق عنيد، قوي البنية، شديد المراس.. يملك نظرات ثاقبة تتحرك بها عيونه السوداء، كأنها عيون أسد هصور.. لا يمكن أن أتوقع منه إلاّ صمود الأبطال، وشموخ الجبال الراسيات.. مرّ في الانتفاضة الأولى بحبسة قصيرة، أكسبته بعض الخبرات، أضفتُ لها ما عندي، فاكتملت عنده الصورة.. ها نحن ثلاثتنا في هذه الزنازين.. أين هم الآن؟ بين أيدي المحققين، أم أنهم رموا، كل واحد في زنزانته؟ أخشى ما أخشاه أن يلعبوا بهم لعبتهم الخبيثة.. يحصلون من أحدهم على معلومات، قد تكون عامة، وغير مفيدة، إلاّ أنهم يوظفونها عند الآخر.. يوهمونه بأنهم يعرفون كل شيء، ولا داعي للتستر وإخفاء القصة، على حدّ تعبيرهم، ولكني حذرتهم مراراً، من كل هذه الألاعيب.. لا لن يقدروا على اختراق جبهة خبراتنا، بإذن الله. النفوس قوية،

والإعداد متين.. ولكن كيف تمكنوا من سحبنا إلى هنا ..؟ حلقات مفقودة يجب الوقوف عليها.
انتبه عامر من غمرة أفكاره على صوت أقدام ثقيلة تقترب من باب زنزانته.. دسّ المفتاح الثقيل أنفه الغليظة في قفل الباب.. دار دورته، وفُتح الباب على شاب دفعوه داخل الزنزانة..
كان أشعث أغبر، تبدو عليه آثار التعذيب.. تستطيع أن تقدّر أن عمره في الزنازين يزيد على العشرين يوماً.. يتقطع وجهه ألماً وحزناً.. رغم أنه في ريعان شبابه، إلاّ أنه بدا كهلاً ناهز الأربعين.. طرح السلام، ثم ألقى بنفسه على إحدى البطانيات.. سحب بطانية أخرى غطى بها جسده، دون مراعاةٍ للرائحة الكريهة التي انبعثت منها.. قال بصوت خافت هزيل قبل أن يغط في نومه:
- لا تؤاخذني فأنا منذ شهر ونصف لم تغمض عيناي أبداً..
ودارت في رأس عامر الظنون.. «ما هو سر هذا الضيف؟! قد يكون عصفوراً!!* هل يستعملون معي أنا أسلوب العصافير الذي أكل منه الدهر وشرب؟! ضع كل الاحتمالات، ولا تغفل أحدها أبداً، خاصة الاحتمال الأسوأ، وأنت في هذه الظروف العصبية.. ثلاثة أيام وأنت تكلم فيها روحك.. ألا يود اللسان لو يجد من يناجيه؟! ألا ترى في صدرك حشرجة وضيقاً تود لو تتخفف من أثقالهما.. أن تجد من تشكو له همك، بما فيه من الراحة النفسية و«فشفشة» الصدر.
أجد رغبة عارمة في الحديث مع هذا الرجل النائم، حتى لو كان

* العصفور مصطلح يُطلق في السجون الإسرائيلية على العميل، الذي يتعاون مع المخابرات في الوصول إلى اعترافات الأسرى.

«عصفوراً».. إني أعرف كيف أحافظ على مسافة بعيدة عن الدائرة المحظورة؟! ولكن، وكما تعلم تماماً، فإن مهمة العصفور لا تقتصر على الوصول إلى الأسرار التي أتقن دفنها في صدري.. قد تكون مهمته معي تزويد المحققين بعض المعلومات الاجتماعية والهامشية في حياتي، وهذه، هم يعرفون كيف ينسجون حولها قصصهم وادعاءاتهم، بأنهم يعرفون عنا كل شيء.. أية معلومة تتبرع بها قد توظف ضدك.. وقد تكون مهمته التأثير على روحك المعنوية من خلال منظره البئيس، وحالة الكرب التي رسمت نفسها على وجهه.. وقد. وقد..

تحلّ بالصمت يا عامر، ولا تثرثر.. ها هو ينام ويكفيك شر الكلام. قد يكون شريفاً، ويخاف منك أن تكون عصفوراً.. احذر من الدردشة الفارغة ولا تتبرع بقطع عنقك..

وبدأ الضجر يملأ صدر عامر.. هناك علامات استفهام لا تجعل للنوم عليه أي سلطان.. يحاول الهرب منها، وهو مقتنع بعقله، بضرورة الابتعاد، ولكن قلبه سرعان ما يعود للنبض على إيقاعاتها، وكأنها نار في ليل، تستهوي الفَرَاش للوقوع في لهيبها.. «قم إلى الصلاة يا عامر، وأرح نفسك في رحاب الله. فوّض الأمر إلى صاحب الأمر كلّه.. ادخل دائرة النور، وابتعد عن دائرة النار...

نار يتصاعد لهيبها على شكل علامات استفهام رهيبة.. «أين الخلل، إن كان هناك خلل؟! كيف وصلوا إلينا..»

ويبتعد عامر قليلاً مع لا إله إلاّ الله، ثم حسبنا الله ونعم الوكيل.. يستشعر، قليلاً، بطمأنينة تُنزل بردها في صدره.. يتنفس بعمق.. يتخفف، قليلاً، من ضجره، إلاّ أن علامات الاستفهام تعود إلى مطاردته بإلحاح شديد..

هل شاهدنا أحد عيونهم، ونحن نلوذ بالفرار..؟ سيبلغ عن أوصاف السيارة، ولكن السيارة مسروقة، ولا أحد يعرف بأنها تعود لنا، إلاّ من اشتريناها منه، وهذا مأمون الجانب. لقد تخلصنا من السيارة سريعاً وانتهى الأمر.. هل تسللت إحدى الكلمات من فم إبراهيم أو نبيل؟! هذا مستحيل.. أنا أعرفهم كما أعرف نفسي.. لقد تعاهدنا على كتمان السر، تعاهد المؤمن وهو في أعلى درجاته الإيمانية مع ربه.. هل كان هناك تصرف من أحدنا يعتبر خروجاً عن المألوف؟! كنا نلتقي في أغلب الأيام.. انطلقنا في سيارتي إلى طرف بلدتنا «بير زيت»، استبدلنا السيارة، ثم انطلقنا لتنفيذ العملية.. هل انتبه إلينا أحد؟! لا أعتقد ذلك.. لم يكن في تصرفاتنا ما يلفت النظر بتاتاً.. كانت هناك جملة من المحظورات الأمنية طبقناها بحذافيرها، التكتم والساتر الأمني، وعدم لفت أنظار الفضوليين، والحركة الهادئة بعيداً عن أي توتر قد يلاحظه أحد الناس، خاصة المقربون، الأم والأخ والزوجة.. حافظنا على عاداتنا اليومية، دون أن نخرج عن أي مألوف.. ساعة خاطفة، نفذنا فيها المهمة، باتقان، ثم عدنا أدراجنا؛ لنمارس حياتنا ببرنامجها الاعتيادي، وكأن شيئاً لم يكن..

أذكر أنني، من شدة حرصي، استمعت إلى الموظفين في الشركة التي أعمل فيها، صباح يوم العملية، يمتدحون هذا النوع من العمل، ويعبّرون عن بهجتهم لتطور الانتفاضة على هذا النحو.. أعربت عن استيائي.. قلت: إن هذا العمل من شأنه أن يضعف الإنتفاضة، وأن يخرجها عن طابعها الجماهيري.. كنت أريد أن أبدد أي خاطر، قد يخطر حولي، كوني أسيراً سابقاً.. قد يحسبني البعض، بأني ما زلت من دعاة الجهاد والثورة!! توقف قليلاً يا عامر.. ألن تثير ملاحظتك الفاضلة هذه عكس

ما تريد؟! قد يرى البعض في غرابة موقفك هذا محاولة للتستر على ما هو موجود عندك.. ليتني سكتّ.. «من صمت نجا.. على رسلك.. لا تذهب بعيداً في التحليل، ولا تتعجل الأمور..».

تململ هذا الذي افترض فيه أن يكون «عصفوراً».. قعد، ثم نهض مفزوعاً، كمن لدغته أفعى.. فرك عينيه بحركات سريعة.. نظر يميناً وشمالاً، بخوف وقلق كمن يترقب داهية، توشك أن تقع فوق رأسه.. سأل: أين أنا؟!

أجبت بعد أن قرّرت اختصار الكلمات قدر المستطاع:

– أنت في «زنازين المسكوبية»..

– بارك الله فيك..

وجدت نفسي أسأل:

– هل أتشرف بمعرفتك؟

بعد برهة صمت، شعرت بأنها طويلة، أجاب بشيء من الحيرة:

– لي رجاءٌ حارّ أن نلتزم الصمت.. أنا بحاجة إلى وقت أخلو به مع نفسي.. أريد إعادة ترتيب أوراقي.. أرجوك.

– لك مني ذلك.

– أرجو أن لا تؤاخذني.. لقد تنقلت في عدة زنازين.. هنا، وفي «الجلمة» وفي مركز «بتاح تكفا».. وجدت فيها الصالح والطالح.. أتكلم الكلمة البريئة العادية فأجدها أمامي عند المحققين. أصدقك القول: بت أفترض في كل من أراه بأنه «عصفور»..

– قلت لك بأن لك ما تريد.. أنا من جهتي لست مع كثرة الكلام..

– وأنا كذلك بارك الله فيك..

وغرق في صمته طويلاً.. استلقى على ظهره.. شبك أصابع يديه خلف

رأسه.. ركّز نظره على نقطة معينة في السقف.. ساعة؟ ساعتين؟ ثلاثة.. قام، توضأ، ثم شرع في صلاة طويلة، جلس بعدها القرفصاء، وعاد إلى صمته، الذي كان يقطعه بتنهدات عميقة، يخرج معها التهليل والحوقلة. عدت إلى نفسي ألومها.. لماذا تفترض يا عامر، الذي هو أسوأ..؟ ألا يمكن أن يكون هذا المسكين أخا لك، ويحتاج إلى من يشد عضده، ويرفع قليلاً من معنوياته..؟ ألا تخشى أن يحاسبك الله على تقصيرك في مثل هذا الموقف، الذي يتطلب منك التلاحم مع أخيك..؟ نعم هذه منفعة أكيدة، ولكن قد يقابلها خطر جسيم.. «ودرء المفاسد خير من جلب المصالح».. ولكنك، بخبراتك وفهمك الأمني، تستطيع تحصيل المصالح وتجنب المفاسد.. أنا، من ناحيتي، سرّي في بحر عميق، لا يمكن أن أفصح عنه لأحد؛ لا العصفور، ولا الصقر، ولا حتى لأمير المؤمنين.. أنا مطمئن من هذه الناحية.. ثم إنّ هناك مصلحة، هو قال إنه تنقل بين عدة زنازين.. من الممكن أن يكون التقى مع إبراهيم أو نبيل.. إني في أشد الحاجة لمعرفة أي شيء عنهما.. ولكن (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا). عدت لسوء الظن؟ ألم تلحظ صلاته، واستغراقاته في ذكر الله..؟ عامر أنت تعلم أنهم يجيدون التمثيل. لن آخذ كلاماً على عواهنه.. عندي معمل تحليل المعلومات يعمل جيداً.. على كلٍ سآخذ منه ولا أعطيه شيئاً.. وما آخذه أفحصه جيداً.. ولن أفلت لساني بلا حساب.. سأخطط سيناريو الحديث مع هذا الرجل، كلمة، كلمة.. إن كان عصفوراً أعرف كيف أعيده إلى أسياده، بخفيّ حنين، وإن كان مناضلاً، فسأزوّد روحه بشحنة معنويات، يستفيد منها في صراعه مع هؤلاء الأوغاد.

ولكن كيف أدخل عالم هذا الرجل الذي ضرب حول نفسه أسواراً عالية من الصمت.. اصبر عليه، قد يبدأ هو الحديث، وإذابة الصمت.. والله

يا عامر، أخشى أن شهوة الثرثرة هي التي تقودك، وتأخذ بيدك؟ نسجت لنفسك بعض التبريرات الواهية. عد إلى نفسك، وابقَ في خلوتك. يا أخي، الأجواء خانقة، وطول الانتظار جعلني أتقطع ضجراً.. لو أن هناك شبْحاً وتحقيقاً، لوجدت ما يخفف عني هذا الكرب الذي أحاطوني به.. تركوني وحدي.. شكلوا مني وحدة تحقيق، وزرعوها في صدري.. أصبحت المحقق، والمحقق معه، في آن.. لم يبق إلاّ أن يسلموني وسائل التحقيق. وسائلهم أعرفها جيداً، منذ زمن بعيد.. ثمة تجديدات، يظهر أنها طرأت على أساليبهم.. ولكن ما هي؟ هل إبقائي في هذه الزنزانة، هذه الأيام الطوال، بلا سؤال ولا جواب، من هذه الأساليب المستجدة؟! وهذا الذي افترضت أنه عصفور في البداية، ثم جعلت نفسي تسوِّل لي بأنه قد يكون غير ذلك.. إنه ابتلاء غريب.. هل أفتح هذا الصندوق وأنظر ما فيه أم أبقيه على عماوته؟!

صمت، وصلاة، وتسبيح، وصمت.. «إنَّ عصافير ذلك الزمان كانوا متعجلين في إنهاء مهماتهم.. هل أحدثوا عليهم تعديلات وراثية، أم أنهم تلاقحوا معهم في المكر والخباثة؟!».

ثلاثة أيام مضت، وهو في عزلة تامة، وأنا كذلك.. أنا لم أبادر بأي حديث معه، وهو كذلك.. مساءً، سحبوه ساعة للتحقيق، ثم أعادوه.

عاد يتكلم مع نفسه بصوت مرتفع.. يسب ويلعن ثم يهدأ ويناجي نفسه:

– لم أتكلم مع أحد.. وجدت عندهم معلومات جديدة عني. صحيح أنها غير مهمة، ولكن كيف أتوا بها.. هل يتعاملون مع الجنّ.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله..

وجدت الآن، أن حديثي معه قد أصبح ضرورة، وواجباً يمليه عليّ ديني وضميري:

- هون عليك يا أخي..
لم يدعني أكمل. صدني بسرعة وحدّة:
- عفواً.. أرجو أن تحافظ على صمتنا.. لا داعي لأي حديث..
شعرت بكل وضوح، أنه قد وقع صريعاً للهوس.. لا بدّ من إنقاذه وإعادة بعض الثقة لنفسه..قلت بهدوء:
- يا أخي لن نتحدث عن أي موضوع يخصك.. دعنا نخفف عن أنفسنا قليلاً من هذا العناء.. لنتحدث عن الصبر والثبات.. الاستعانة بالله. دعنا نذكر الله ونخرج قليلاً من هذه الأجواء الخانقة.
رد علي بصمت طويل، ثم وجدته، وقد انفعل بكلمات، وكأن لسانه معول يقطع من صخور أساه:
- بصراحة أنا أخشى من العصافير.. إنهم ثعالب ماكرة. لا تدري كيف يتصيدون منك كلماتك.. ألا يكون الصمت خيرا لي ولك..؟
- ولكنك تستطيع التحكم بكلماتك.. «لسانك حصانك»..
- يا أخي لي تجربة مريرة معهم.. في حبسة سابقة، أدخلوني إلى «غرف العصافير».. كنت قد سمعت بهم، ولكني لم أتصور بأنهم يجيدون التمثيل بهذه البراعة.. لقد جعلوا من أنفسهم أمامي أتقياء بررة.. استغلوا تديّني، ومثلوا عليّ التدين تمثيلاً في غاية الاتقان.. صدقتهم.. يا لسذاجتي في ذلك الوقت..
- وأنت اليوم بفضل الله عليك، في غاية الحذر منهم.. فما المشكلة إذاً؟!
- المشكلة أن «درهم وقاية خير من قنطار علاج».. أنا بكل صدق، لا يوجد عندي شيء.. سبعون يوماً في الشبْح والتعذيب، ولم يثبت عليّ أي شيء.. أشعر بأن التحقيق في نهاياته.. أعرف أن الخطوة الأخيرة هي أن يحاولوا اصطيادي من خلال «عصفور»، أو أن يحوّلوني إلى

«غرف العصافير».

– ولكنك كما قلت لا يوجد عندك شيء، فلماذا تخاف منهم؟!

– أخشى ما أخشاه أن يلفّق عليّ أحد العصافير إحدى التهم، حتى يثبت لأسياده بأنه ذكي وشاطر، ثم يأتي ذلك على حسابي..

– معقول! أيستطيع ذلك؟!

– وهل ترى أن عندهم ذمة أو ضميراً؟! ما الذي يمنعهم بعد أن باعوا أنفسهم للشيطان؟!

كان مع طول تمنعه، وشدة حرصه على الصمت المطبق، يعزز فيّ بأنه ليس عصفوراً، كما حسبته بادئ ذي بدء.. بدأت أحسن ظني به، مع إبقاء ضوء الحذر الأحمر دائم الاشتعال.. وكانت رغبتي بمعرفة أي شيء عن نبيل وإبراهيم تتعاظم، ولكن كيف السبيل إلى هذا الأمر؟! سألت:

– قلت بأنك تنقلت بين الزنازين.. هل صادفت أحداً من «بير زيت»؟

– أذكر أن شاباً يدعى «نبيل» التقيت به في زنزانة (رقم ٧).. يا له من رجل عجيب.. أصرّ على التعرف إليّ، ومحادثتي رغم أني كنت مرهقاً وجائعاً للنوم.. بقيت على صمتي، ولم أستجب له رغم أنه تحدث طويلاً معي.. أشك بأنه «عصفور»..

– ماذا؟

– نعم شككت به.. لقد تحدث عن أمور لا داعي لها.. قال بأن هناك شخصاً آخر، يدعى إبراهيم قد اعترف عليه. وكان يسب ويلعن اليوم الذي تعرف فيه عليه.. وقال أن الاعترافات خطيرة، قل لي الآن: ما هو الداعي الذي يدفعه لهذا الحديث. ألا ترى معي أنه الطعم الذي رماه لي، كي أنفتح معه في الحديث؟ أثق به، ثم يحاول بعد ذلك الحصول

مني على شيء ما.. ولكني كما ذكرت لك، ليس عندي شيء.. أتدري ماذا كان موقفي؟! التزمت الصمت. حقاً السلامة في الصمت رغم ثقله وقساوته في هذه القبور الخانقة..

حرت في أمري، رغم أن هذا الكلام أعاد إلى ذهني صورة «العصفور» الأولى، التي التقطتها له في لحظاته الأولى معي، إنه يفتح أبواب فضولي بهذا التمنع الحصين، وهذه اللحظات المحسوبة جيداً.. هل تراه التقى إبراهيم؟؟ وجدت نفسي أسأل مرة أخرى:

– وهل التقيت مع هذا، الذي قال لك عنه نبيل، بأنه اعترف عليه.. ماذا قلت عن اسمه؟!

– إبراهيم. نعم التقيت به، وللأسف ادعى أمامي، أن نبيل هو الذي اعترف عليه.. لم أخبره بما قاله صاحبه نبيل. قد تكون لعبة من لعب المخابرات.. إما أن يكونوا قد أجادوا اللعب بينهم، أو أن يكونوا «عصافير»، وهذه الثانية هي التي أرجحها.. ما معنى أن يخبرني كلٌ منهم أن عليه اعترافات خطيرة..؟ إنهم يريدون استغلالها لإيجاد الثقة بيني وبينهم، وبالتالي سحب ما يريدون مني.. أنا بدوري، وجدت السلامة في الصمت.

صمت قليلاً، ثم تابع:

– ولكن لماذا أجد نفسي أتحدث معك بطلاقة.. أنت الوحيد الذي استطاع أن يخترق حصون صمتي المنيعة.. لا أدري كيف انشرح صدري لك.. الله وحده هو الذي يؤلف بين القلوب ويشرح الصدور..

«انتبهت إلى ضوء الحذر الأحمر»..

«أمسك نفسك يا عامر.. هذه مجاملة سخيفة، ولا داعي لها بتاتاً.. أنا لم ينشرح صدري له، ولن ينشرح، ولا لأي مخلوق في هذه الزنازين».

شعر عامر بأن الحديث مع هذا الرجل غير مأمون العواقب.. «يتكلم معك بخوف ووجل، بعد تمنع عن الكلام دام ثلاثة أيام، ثم تجده الآن يوصل رسالة خطيرة.. أوصل لي، بطريقة في غاية الخبث، بأن نبيل وإبراهيم قد اعترفوا بأشياء خطيرة. ولم يدل بشيء، إلاّ بعد أن سألته أنا.. ورطت نفسي بنفسي في هذا الحديث.. إن كان عصفوراً فإنه في غاية الخبث.. أغلق باب الفضول يا عامر، واربط لسانك خير لك»..
أفاق عامر على نفسه، وكلمات ضيفه الحاسمة تضرب على أوتار قلبه:

– أنا أرى يا صديقي أن نعود إلى صمتنا.. هذا خير لي وخير لك.

– طبعاً بعد أن بلغت رسالتك خير بلاغ.. وكأنه يقول: «اللهم قد بلغت اللهم فاشهد..»

– نعم.. خير ما نفعله في هذه الزنازين هو الصمت، وذكر الله.

– وحبذا لو يكون ذكر الله صامتاً..

«هل صحيح ما قاله هذا الرجل..؟ أعلم أن صمود المعتقل في التحقيق وهو وحيد، دون أن يكون له شريك في عمله، أفضل بكثير من هذه الحالة... اثنان أو ثلاثة تحت مطارق المحققين الخبيثة قد يتمكنون من أن ينزعوا بينهم.. الأمر صعب بوجودنا الثلاثة هنا.. كلام هذا الخبيث قد يكون صحيحاً، لا سمح الله، وقد يكون غير ذلك.. أعترف، بأنه قد أوقع البلبلة في صدري، هذا الغراب النحس.. وهذا ما يحملني على التأكيد بكونه «عصفوراً».. وأي «عصفور»؟ إنه أخبث «عصفور» مرّ علي في حياتي الاعتقالية. أشعل كل الأضواء الحمراء، وعد إلى حذرك الشديد يا عامر..»

ودخل في رحلة صمت طويلة ثلاثة أيام أخرى.. تركني في حالة من الحيرة والقلق. أحاول أن أسبح في رحاب ذكر الله. أفوّض الأمر إلى

الله وأرتب مشاعر التوكل التي تطارد مشاعر القلق والتوتر، ثم ما ألبث أن أعود سريعاً إلى قصة اعتراف نبيل وإبراهيم، التي زّودني بها هذا الخبيث.. إن صدق، فإنها كارثة ما بعدها كارثة.. ولكن حلل الأمر جيداً.. أيعقل هذا الكلام؟! نبيل وإبراهيم من أقوى الشباب، وأشدهم عزيمة. لقد اخترتهم على أسس أمنية قوية توفرت فيهم كل الشروط؟؟ ولقد أكسبتهم كل المهارات الأمنية المطلوبة، سواء في العمل، أو في التحقيق.. لقد نقلت لهم كل تجربتي.. تجربتي كانت مريرة في الاعتقال الأول، ثم إني نقلت لهم كل التجارب التي مرّت عليّ في السجن..

خمس سنوات، وأنا مسؤول أمني أتابع ملفات التحقيق، وأضمد الجراح التي تخرج منكوءة من أقبية التحقيق.. هل تراهم بعد كل هذا يعترفون بهذه البساطة..؟ تتساقط اعترافاتهم من أفواههم في غضون أسبوع!! هذا من سابع المستحيلات؟! «ها هم الأوغاد يتركونني في الزنزانة أسبوعاً كاملاً، وحدي دون تحقيق، ماذا يريدون من هذه اللعبة التي تسمى زنزانة.. هل تنال من روحي؟! إنها بالنسبة لي متعة روحية، لو كانت دون تحقيق وترقب وانتظار وتلاعب في الأعصاب، ولكن مع هذا، فإن حسبي الله ونعم الوكيل.. في الحبسة الأولى: الشبْح والتعذيب على أشده، بدأ من اللحظة الأولى، أما هذه، فأسبوع ولم يبدأ بعد.. ليته يبدأ..!!

الأبواب تفتح وتغلق.. قرقعة المفاتيح الثقيلة ترتعش لها القلوب الضعيفة، إذا اقتربت من باب الزنزانة.. أصوات كسيرة تنادي، وتطلب الولعة من الشاويش.. الزنزانة تزداد كآبة يوما بعد يوم.. هواؤها يتثاقل.. جدرانها الخشنة جامدة، ولا تعير لأحد أي انتباه.. مروحة السقف تعمل، وتتوقف على مزاج المحققين.. يرانا من حيث لا نراه، يتحكم بهوائنا وأنفاسنا..

فجأة، الباب يُفتح.. لا أكاد أصدق. بعد هذا الزمن الطويل، وقف شعر رأسي، وهممت بالوقوف. إنه دوري الآن، ولكنهم طلبوا ضيفي.. تركوني أغني على ليلي.. ما هذه اللامبالاة القاتلة التي أحاطوني بها، إحاطة الليل إذا فرض سواده على الكائنات.. هل تراهم يستفردون بنبيل وإبراهيم، ويتركونني بعد ذلك، ليلتقطوا بعض النقاط؟ متى تدق ساعة النزال بيني وبينكم أيها الأوغاد؟! سترون من يُري الآخر نجوم الظهر.. حددوا، أنتم، زمان ومكان المعركة، وسترون كيف أغزوكم، بإذن الله، في عقر داركم..

ساعات ثم عاد ضيفي العزيز.. بماذا سيأتيني هذه المرة؟! حضّر نفسك يا عامر لمقلب جديد.. قد تكون غيبته عنك كي يرفع تقريره، ويتلقى تعليمات جديدة.. طبعاً، هذا على فرض انه «عصفور»، أم تراه سيواصل صمته، فيزيدني حنقاً على حنق هذه الجدران الصماء؟!..

دخل الضيف هذه المرة، بوجه بشوش يبشر بخير، وبدأ يثرثر..

–الحمد لله.. بات الفرج على الأبواب.. دعني أولا أسجد شكرا لله، ثم أحدثك.

خرّ ساجداً دقائق طويلة، أثارت في صدري الهواجس والظنون كريح عاصفة رفع جبينه عن الأرض وقال:

– لقد قال لي كبير المحققين اليوم، بأننا ننظر في أمرك.. غداً، إما أن نطلب لك من المحكمة تمديداً إضافياً، أو نطلق سراحك.. ثم عرض عليّ إطلاق سراحي مقابل أي اعتراف اعترف به. لم أدلِ لهم بشيء، لأنه لا يوجد عندي شيء كما تعلم. أنا أتصور أن أمامهم أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن يطلقوا سراحي.. أو أن يحولوني إلى «غرف العصافير»..

انفتاح في الكلام، ومبادرة لم أعهدها فيه من قبل، وكأنه انتهج خطة

جديدة، ولكن ما المطلوب مني الآن؟! لم أجد في الردّ عليه إلاّ الدعاء والصمت.

– فرّج الله كربك وكربنا .

ثم انطلق يحدث عامر عن أشواقه لأهله وبيته وعمله، بعد هذا العذاب الطويل..

«ستة وسبعون يوماً يا لها من عمر مديد..! هل ستعرفني بنتي الصغيرة التي لم تتجاوز السنتين.. شيء عظيم أن تحتضن ابنتك الصغيرة بين ذراعيك، لا يعرف الإنسان النعمة إلاّ حينما يفتقدها .. وعيون أمي تراها قد جفّت دموعها خلال الأيام العجاف.. إني مشتاق لكل شيء يقف وراء هذه القضبان الظالمة، الشمس وحنينها الدافئ الذي يبدد الرطوبة التي نخرت عظامي.. المطر اللذيذ الناعم يمدّ الكائنات بخيره الوفير ويسكب في النفس السكينة والرحمة والحب..»

كان هذا الرجل يشرّق ويغرّب في ثرثرته. هكذا انحلت عقدة لسانه، بعد زيارته الخاطفة للتحقيق. أما صاحبنا عامر فقد ارتسمت في رأسه علامات استفهام كبيرة حول هذا الرجل:

«فهمت لماذا كان صامتاً! والآن كيف تفسر صمته؟.. هل هي فرحة الإفراج المتوقع؟ هذا إن كان نظيفاً، أم هي خطة جديدة بعد فشل الخطة السابقة، تمنّعه، وصمته الطويل كي يكتسب الثقة، فأبادره أنا بالحديث؟ لم تنفعه هذه الطريقة، لأنني تقاسمت وإياه الصمت.. هل ترى أن الخطة الجديدة عنوانها الثرثرة..؟ إياك أن تثرثر.. الصمت، يا عامر الصمت..».

تكلم ضيف عامر الكريم، بسخاء. صال وجال في ميادين كثيرة، لكنه لم يقترب من الميدان الأمني، ومجريات التحقيق والاعترافات.. كان يعلم بأن

عامر له تجربة سابقة في التحقيق، وحذر جداً من «العصافير» تحديداً.. وكان يتهرب بسرعة، إذا اقترب الحديث من الدائرة المحظورة.. قال عامر في نفسه: «إنه حذر من أي شيء يثير الشك في صدري، يبتعد عن الدوائر المحظورة.. إنه بهذا يعزز ثقتي به، من المعروف عن «العصافير» أنهم يحاولون الوصول إلى ما هو مختبئ في الصدور، ولكن هذا يهرب منها، ولا يريدها بشكل واضح.. من شأن هذا أن يبعث الطمأنينة في النفس ويبني الثقة.. أخشى ما أخشاه، إنه يريد شيئاً في نهاية المطاف، من وراء هذه الثقة التي يعمل على بنائها بإتقان متميز».

قضينا نهاراً وليلة من الثرثرة المتواصلة.. أحاديث دافئة، وذكريات جميلة، كان يفتحها لعامر بيده، ويطوف بها في سياحته بعيدة في عالمه الخاص. وكان بين الحين والآخر يقول: طالما أن حديثنا بعيد عن المحظورات، فما المانع؟ نفضفض عن صدورنا بعض هذه المعاناة.. ما رأيك؟!

انشرح صدر عامر لهذه الأحاديث الشيقة.. وجد أنها فعلاً، تخفف، ليس قليلاً دائماً، بل كثيراً، من ضغط الزنزانة، وهموم التحقيق.. نسي نفسه، وشارك ضيفه هذه المشاعر النبيلة. أوشك أن ينسى حكاية العصافير، لولا أن ضوءاً أحمر من الحذر كان يشق طريقه في صدره ويفرض نفسه بقوة.. لقد دفع ثمناً باهظاً في حبسته الأولى.. خمس سنوات جرها عليه لسانه عند «العصافير»، ولكن هذا الرجل لا يقصد بتاتا، الوصول إلى أي شيء يريده المحققون، فلماذا يكون «عصفوراً» منافقاً.. ما هي وظيفة المنافق إذاً؟!

ساعات طويلة من الأحاديث الممتعة.. انتعشت بها النفس، وانتعشت الروح، وتبدّدت الأطوار الكئيبة.. وفي اليوم التالي، دس المفتاح أنفه الغليظة.. طقة خلخلت الأركان، طقة ثانية وثالثة.. وطلبوه مرة ثالثة، وأنا

مكانك سر. غاب نصف ساعة، ثم جاء وهو يكاد يطير من الفرح.. – جاء الفرج، الحمد لله أنا بريء.. قالوا حضّر نفسك خلال خمس دقائق.. يا سلام ما أحلى هذه الكلمة، «شحرور». سيأتيك الدور يا عامر، إن شاء الله. شد حيلك.. لا تمكنهم من أي اعتراف، مهما كان صغيراً.. المسألة صبر ساعة، فقط.. الصبر والثبات يا عامر..»

كان يتكلم بسرعة، وعامر يقول في نفسه: «وماذا بعد؟! إذا كان «عصفوراً» فإنه الآن سيظهر على حقيقته. سيطلب مني إذا كنت أريد شيئاً من الخارج.. أنا متلهف على أشياء كثيرة ضرورية، ولكن هذه الثقة التي تُبنى في الزنازين ثقة واهية.. بناء على أمواج بحر ليس له قرار.. لكنه لا يطلب شيئا من هذا القبيل.. أو لا.. إنه يريدني أن أبادر من جهتي حتى لا تتزعزع الثقة.. انقضت الدقائق الخمس، وجرت معها غيرها، وغيرها.. وجدها عامر ثقيلة، وهو ينتظر أن يعرض «العصفور» خدماته. انتهت المدة.. فتح الباب.. عانق عامر وغادر.. عاد عامر إلى نفسه.. «أحسن الظن في هذا الرجل، ها هو التزم الصمت طويلاً.. وعندما تحدّث ابتعد، بكل ما أوتي من جهد، عن المناطق المحظورة.. ثم أخيراً، لم يعرض خدماته، وهو في طريقه إلى بلاد الحرية.. ماذا تريد أكثر من هذا حتى تعطيه ثقتك؟ إنك تبالغ في الحذر إلى درجة الهوس.. لكن هذا مطلوب خاصة في الزنازين..»

فتح الباب ودخل «العصفور»، مرة أخرى..

– قالوا لي بأن أوراق الإفراج غير جاهزة.. انتظر في الزنزانة خمس دقائق.. إنهم يلعبون بأعصابي يا عامر.. بعد دقائق «يسيح الثلج ويبين ما تحته». هل تراني بعد ساعة أو اثنتين أكون في البيت. يا سلام!

«إنها فرحة الحرية، من الطبيعي أن تحل عقد لسانه.. دعه يتكلم بما

يحلو له..»

– آه.. نسيت.. ألا تريد شيئاً من أهلك..؟ أنا آسف، لقد شغلتني فرحة الإفراج، وحرب الأعصاب هذه التي يشنونها علي.. (قاتلهم الله أنّى يؤفكون)..

«اظهر على حقيقتك أيها «العصفور» الكبير.. أخيراً، لقد وصلت إلى ما تريد.. تريد توصياتي للخارج، كي تنقلها لأسيادك.. يا لك من ثعلب ماكر..»

– أنا لن أصل إلى بيتي قبل أن أمر ببيتكم. سأطمئنهم عليك، بإذن الله. قل لي ماذا تريد منهم؟!

– بارك الله فيك.. أنا سألحق بك بعد أيام قليلة، إن شاء الله.. قل لهم إني غير متورط بشيء. ستثبت براءتي، وسرعان ما سأعود إليهم سالماً غانماً، بإذن الله..

– يا أخي «سرك في بير»..

وكان الباب يُفتح وهو يتابع القول:

– أمامك فرصة عظيمة.. من الزنزانة إلى البيت مباشرة.. قل ما تريد، أنا أحببتك وأريد أن أقدم لك خدمة..

– سلّم على كل الأحباب.. سلامات حارة، كل ما أريد.

«وخرج أغرب «عصفور» رأيته أو سمعت عنه في حياتي.. لقد ظهر الهلال أخيراً، وثبت العيد، وبشكل قاطع، تأكدت من خلال المشهد الأخير من مسرحية، استمرت أسبوعاً طويلاً، أن أخانا الفاضل «عصفور» محترف.. مع الاعتذار لجنس العصافير البريء مما لوثهم به هؤلاء المنافقون».

خلا بنفسه مرة أخرى. وقف وقفة تقييم لتجربته.

«لقد قطعت الشك باليقين، بعد سبعة أيام من المراوغة والخداع.. وماذا تعلمت أمام هذا الخبيث؟ كيف بدت صورتي النفسية التي من المؤكد أنه نقلها لهم؟ أخباره عن إبراهيم ونبيل أحدث بها بلبلة في صدري وكدت أصدقه.. عندما جاءني بقرار الإفراج عنه، انتظرني في الجولة الأولى، كي أحمّله رسائلي للخارج، ولما لم أفعل، جاءني في الجولة الثانية بعد أن تلقى تعليمات جديدة، جاءني ليعرض هو عليّ، وبشكل مباشر وفاضح».

«ماذا تريد من الخارج».. «سرك في بير».. «أمامك فرصة عظيمة».. كم سأكون أحمقاً لو صدقته!! أيام طويلة قضاها معي، بأخبث ما وصلت إليه أساليبهم التي تعجز عنها الشياطين.. لقد ذكرني فعل هذا «العصفور» الخبيث بقصة قديمة.. من الإسرائيليات التي تروى للعبرة والانتباه الشديد على فعل الشياطين، قصة «برصيص» الراهب الذي أرهق إبليس من كثرة عبادته وقوة صلاحه.. أما زلت تذكر تفصيلات تلك القصة يا عامر؟!

جمع إبليس معاونيه، وطلب منهم المشورة.. تقدم الشيطان الأبيض وقال: دعه لي.. أنا أتعهد به.. وانطلق إلى صومعة «برصيص» بصورة راهب، يريد التفرغ لعبادة الله.. طرق باب الصومعة حيث كان «برصيص» يصلّي.. لم يفتح له، وبقي مستغرقاً في صلاته، التي كان لا يقطعها إلاّ كل عشرة أيام مرة.. بعد انقضاء عشرة أيام، نظر«برصيص» من صومعته، فرأى رجلاً أبيض قائماً يصلّي بخشوع وثبات، فلام «برصيص» نفسه على أنه تركه قائما في العراء، دون أن يفتح له، لعله رجل من اهل الله.. أطل عليه وسأله:

– ماذا تريد أيها الراهب الجليل؟!

بصوت خاشع حزين أجاب الشيطان:
- أريد أن تعلمني مما علمك الله.. أصاحبك، فأتأدب بأدبك، وأجتمع معك في العبادة..
فتح له «برصيص» صومعته، بعد أن فتح له قلبه، ثم قاما يصليان.. كان «برصيص» يتوقف عن الصيام كل عشرة أيام مرة، ولكنه وجد ضيفه لا يتوقف إلاّ بعد أربعين، وقضى عنده عاماً كاملاً على هذا النحو، ثم إنه استأذن من «برصيص» قائلاً:
- أرجو أن تأذن لي يا مولاي حيث إني أريد العودة إلى شيخي الأول.. عزائم شيخي الأول، وهمته أقوى مما عندكم.. ولكني أريد أن أقدم إليك كلمات يشفي الله بهن السقيم، ويعافي المبتلي والمجنون.
ردّ «برصيص» بعد أن هاله ما سمع..
- ولكني رجل أحب الوحدة، وأخشى من الفتنة إذا أقبل الناس عليّ.
- لا تنسَ أن أجرك على الله عظيم.. إن التفريج عن المكروب قربة فوق كل القربات.
وما زال به حتى أقنعه وعلمه الكلمات.
ثم انصرف فرحاً من عند «برصيص»، ألقى لباس الراهب الذي خنق به أنفاسه سنة كاملة، ثم تلبّس في أحد الناس، حتى أصابه الجنون.. ولما أعيى المطببين ولم يفلحوا في علاجه، جاءهم الشيطان الأبيض بصورة رجل مطبب، ودلهم على «برصيص»..
دعا له «برصيص»، فخرج الشيطان الأبيض من جسده، وشُفي من المس.. وانتشر بعد ذلك خبر «برصيص» بين الناس.
انطلق الشيطان الأبيض حيث بنت الملك.. صرعها، فأصابها المس، ثم وسوس لإخوتها، بعد أن أعياهم علاجها، بأن يذهبوا إلى «برصيص»

ولما كان الصرع لا يأتيها إلاّ في أوقات معينة، فقد تعين أن يبقوها عنده حتى يعالجها عندما تُصرع.. رفض «برصيص» هذا، إلاّ أنهم أصروا عليه، وبنوا لها صومعة بجوار صومعته، وفتحوا بينهما باباً.

ولعب الشيطان الأبيض لعبته المفضلة، فكان يصرعها حتى تكشف له، وليس معها إلاّ «برصيص» وهو ثالثهما.. وكانت جميلة تثير بمفاتنها كل ما في «برصيص» من شهوة مكتنزة منذ عشرات السنين. أثارت في روعه عواطف شديدة، أخذت تتدفق في عروقه.. أصبح كقشة في مهب ريح الشهوة.. لم يتمالك نفسه، وهو يصغي إلى نداءات الجسد العاري المتفجرة بين يديه، وكان له نداء آخر من صاحب الشيطان الأبيض يوسوس له قائلاً:

– إنها فرصتك يا «برصيص»، فرصة لن تتكرّر، ولن يراك أحد..

سرعان ما سقط «برصيص» في مستنقع شهوته.. وقع عليها، واستطاب له تكرار هذا الوقاع، حتى إذا حملت، وظهر حملها، أصابه همّ شديد.. ماذا يفعل إذا جاء إخوتها الأمراء لزيارتها، وتفقد أمرها؟! كان الجواب جاهزاً عند من يملك زمام أمره.

قال الشيطان الأبيض:

– اقتلها وادفنها، فإذا جاءك إخوتها، فقل لهم: قتلها مرضها، ثم بعد ذلك تتوب.. تتوب توبة نصوحة، يحلو لك بعدها التضرع إلى مولاك الغفور الرحيم..

دفنها «برصيص» بعيداً عن صومعته، ونسي من شدة خوفه إزارها مطلاً بشهادته فوق الأرض. جاءه إخوتها، فصدقوا روايته، أليس هو الرجل الزاهد العابد مستجاب الدعاء.. يشفي الله على يديه المرضى ويتبرك الناس على أعتاب صومعته..؟

لم يترك الشيطان الأبيض المركب سائراً.. وسوس لهم بما فعل «برصيص»، ودلّهم على مكان دفنها.. اكتشفوا الجريمة، فانطلقوا مع الناس بمعاولهم.. هدموا الصومعة.. وقف «برصيص» أمام الموت المحقق وجها لوجه.. جاءه الشيطان الأبيض وهو على صورته الأصلية دون تزييف وقال له:

– ما رأيك فيمن يخلصك من هذه الورطة؟

– أنا على استعداد، لك ما تريد..

– لا أريد منك إلاّ أن تسجد لي سجدة واحدة..

– ولكني مقيد ولا أستطيع السجود..

– أريد منك إيماءة من عينيك، فقط..

وسجد «برصيص» للشيطان، ثم سُحب للقطع وحزت رقبته.

طار الشيطان بفرحة النصر وقال من شدة الحبور:

هذا ما أردته منك.. (فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين).

هل حاول أن يصنع هذا «العصفور» المحنّك، صنيع الشيطان الأبيض مع «برصيص»؟ الشيطان الأبيض قضى عاماً كاملاً في عبادة منقطعة النظير، كي يصل إلى مراده.. أما هذا الشيطان فقد كانت له معي أيام معدودة، قضاها وهو يزرع الثقة، كي يصل إلى صيده في هذه اللحظة الأخيرة. ولكنه بفضل الله خاب وخسر، وأرجعته إليهم خالي الوفاض.. ماذا لو كان نبيل مكاني في هذه المحنة أو إبراهيم؟! لم أصوّر لهم العصافير بمثل هذه الصورة الخبيثة.. أعطيتهم فكرة سريعة عن العصافير بأساليبهم القديمة.. كانوا في السابق، يحاولون الوصول إلى معلومات ضحيتهم بسرعة يكتنفها تمويه بسيط.. أما اليوم، وحسب

ما رأيت من هذا الأفندي، فهي خطة طويلة النفس، ومرسومة رسماً محكماً.. في غاية الخبث والدهاء.. على رسلك يا عامر.. تحسب نفسك نبيها، وتظن بإخوانك أنهم أقل نباهة منك؟! هذه وحدها كفيلة بأن تزعزع صف صمودنا.. إذا شعرت بأن إخوانك أقل قوة منك، فمن المحتمل، إذاً، أن يأتي الاعتراف من قبلهم، وبالتالي تدور الدائرة عليك وعليهم. أنت تظن الضعف فيهم، وهم يظنون الضعف فيك، وبالتالي يتسلل الأعداء، وينزغون نزغهم بيننا.. لا يا عامر، إخوانك بإذن الله أقوى منك، ولا تنسَ أن الله خير حافظ، وهو أرحم الراحمين..

وكان مما يؤرق عامر لدرجة كبيرة، هو غياب الشبْح والتعذيب. لماذا يهملونه هكذا في الزنزانة؟! استذكر ما سمعه قبل حوالي شهر، أن قراراً أصدرته، ما تُدعى عندهم، «محكمة العدل العليا»، يقضي بمنع ممارسة التعذيب من قبل جهاز المخابرات. لم يكن عامر يصدق أن المخابرات الإسرائيلية ستلتزم بهذا القرار.. الآن وجد نفسه على المحك.. لماذا لم يعذبوه لغاية الآن، سوى استضافته في هذه الزنزانة الضيقة؟

مقالب التحقيق

بعد تسعة أيام جاء الفرج لعامر يسعى.. فُتح باب الزنزانة، وأطل عليه رجل مخابرات أصلع.. أخيراً، بعد تسعة أيام، شعر فيها عامر أن سنيناً قد مرّت عليه، وهو يترقب، وينتظر هذه اللحظة المباركة.. لحظة انفتاح هذه البوابة، وانطلاقه منها.

قبل أن تخطو قدماه الخطوة الأولى خارج الزنزانة، وضعوا على عينيه نظارة سوداء لا يرى منها أي شيء.. كان قديماً، الكيس النتن الذي يغرق الصور برائحته القذرة.. أما هذه النظارة، فهي أكثر تحضراً من ذاك الكيس.. مكرٌ على صورة تطور وارتقاء.. كان قديماً، يجرّه رجل المخابرات من أسفل الكيس، كما تجر الدابة.. اليوم يؤخذ باحترام مغلف بالخديعة.

خطوات على اليمين، ثم اليسار، ثم الدخول في إحدى غرف التحقيق.. رُفع عن عينيه السواد القاتم، حملق حوله، حتى إذا اتضحت الصورة، وجد

المحقق يبتسم له ابتسامة صفراء، أجاد نشرها على وجهه الأرعن.
كان هذا أول محقق يواجهه عامر في هذه الضيافة. «طويل ونحيف» أبرص الوجه، وله أنف مدبب، ومندفع إلى الأمام.. عيون خضراء، وصلعة تخبرك بأنه قد تجاوز الأربعين. تذكر عامر، وهو يعيد شريط ذكرياته، أنه ذاك المحقق الذي يمثل الأسلوب الناعم. «إذاً» سوف تبدأ مسرحيتهم معي، بهدوء.. هدوء يسبق العاصفة. عونك ربي على هدوئهم وعواصفهم اللئيمة، مثل وجوههم». هكذا قال عامر في نفسه.
أهلاً وسهلاً بك سيد عامر.. نحن آسفون على الإزعاج.. كان بودّي أن تبقى مرتاحاً في زنزانتك، ولكن ما العمل؛ وقد بانت الأمور على حقيقتها، وأصبح من الضروري أن نطلعك عليها، حتى نأخذ رأيك فيها. لم أكن أتصور أنك خطير إلى هذه الدرجة؟! تأكد تماماً، أننا نعرفك من المرة الأولى. هذه الأيام أصبح التعذيب ممنوعاً. وتعرفني أنت، أنني من المرة الأولى كنت ضد التعذيب. أنا أعتقد أنه لا داعي له، خاصة أننا أصبحنا في عصر السلام.. علينا أن نحل مشاكلنا بالتفاهم.. مثلاً قصتك معروفة، فلماذا العنف والشبح؟ شهر، شهرين، ثلاثة، ثم نصل إلى القصة، وتُخرِج لنا القلوب ما بداخلها، لنختصر الوقت والجهد، ولنتفاهم منذ البداية دون وجع دماغ، خير لي وخير لك.. هناك أدلة دامغة، اعترافات واثباتات لا تقبل الشك.. من أصر علىإانكارها، معنا صلاحيات لتمديد اعتقاله فترة طويلة في الزنازين، ثم يأتي يوم ليطالب هو بالاعتراف.. ثم إن المحكمة تأخذ بقانون «تامير»، أي إن لزم الأمر تحاكم على اعترافات الغير، وتقريرنا السري «وكان الله بالسر عليماً»..
قصتك مثلاً، عليها ثلاثة أمور لا تقبل الشك؛ أدلة دامغة، واعترافات

وتقريرنا السري. أنت يا عامر رجل عاقل، وأخاطب فيك عقلك. هل تريد أن نتفاهم؟!

«يروغ في كما تروغ الثعالب.. أشعل نار التحدي يا عامر، وإياك إياك..»

– لا أدري عن ماذا تتكلم.. أية قصة، وأية اعترافات؟!

– حسناً، أنتم هكذا دائماً في بداية الطريق.. النهاية تختلف تماماً، اسمع يا عامر، بصفتك صديقاً قديماً، وأنا أقدر صداقتك، سأعطيك طرف الخيط. إبراهيم ونبيل، تعلم أنهم عندنا. لقد اعترفا بكل شيء. تركناك في الزنزانة تسعة أيام، حتى إذا أخذنا منهم ما لديهم، أتينا بك.. ما نريده هو، فقط أن نسمع القصة منك، نريد أن نتأكد من تطابق الأقوال.. صدقني إني أتعامل معك بمنتهى الصراحة. ألا تريد أن نتعامل بصراحة؟ القصة منتهية يا عامر، أنا جئت لك بها من الآخر. قدمت لك تسهيلات لا نقدمها لأحد. تسعة أيام راحة. قلت لك بأن صاحبيك قد اعترفا، ماذا بقي عليك؟! أن تكون معي صريحاً كما أنا معك تماماً..

«الغبي يفكرني لقمة سائغة.. هكذا بهذه السرعة تريد التهامي.. يا له من تافه!»

– أنا بكل صراحة، لا أعرف عن ماذا تتكلم؟!

ضحك بملء فيه وهتف:

– هذه أحلى نكتة سمعتها اليوم.. كل هذا الوضوح يا رجل، وتدعي أنك لا تعرف.. لا تتخابث على صديقك القديم يا عامر.

تقلص وجه عامر، وقرّر أن يعلن التحدي.. قرر أن ينتقل من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم.

– أنت تتكلم عن أوهام.. متى كنت أنت صديقي؟ لقد سلختم جلدي عن

عظمي في تلك الأيام.. كفاك هراءً..
– لَهْ.. لَهْ يا عامر! أغضبت مني؟ أنا آسف.. قل لي ما الذي أغضبك حتى أتراجع عنه فوراً..
– ما شاء الله، حمل وديع.. أنا أعرفكم جيداً، سرعان ما تنقلبون إلى وحوش كاسرة.. أنيابكم بارزة في وجوهكم بروز الشمس وسط النهار، تريد الذي أغضبني منك.. كل كلمة قلتها لا تثير في النفس إلاّ الغثيان..
– الغثيان.. ما هذه الكلمة، أنا لا أعرف معناها، على كلٍ أنا على استعداد لسحب كل ما قلت، اعتبرني يا أخي لم أقل شيئاً، لنبتعد عن كل هذه المواضيع، أنا بالنسبة لي أعتبرك صديقاً لي. لن أتكلم إلاّ بما يرضيك..
«هل أتحداه، وأبطل له سحر أساليبه المتلونة.. أم أدعه حتى أتسلى على كلامه الفارغ، وأتعرف على سحرهم بكل حباله وعصيه.. ألق لهم ما يلقف سحرهم يا عامر؟! لا، لا إنه التحدي عندئذ، لا تستبق الأمور، اتركه الآن، سيأتي دوره.. سأعلن لهم التحدي، ولكن في الوقت المناسب، عندما يحين موعد الضربة القاضية.. ولكن، ألم تعلّم إبراهيم ونبيل أن إعلان التحدي للمخابرات شيء غير صحيح، ولكن هذا شأن أصحاب الخبرات البسيطة، أما أنا فعليّ أن أهزم أرواحهم، وأن أجعل من معنوياتهم قاعاً صفصفاً، بإذن الله..»
– تريد أن تتكلم بما يرضيني؟؟ أنا يرضيني الصدق.. أما إلصاق التهم الباطلة جزافاً..
– حسناً، لنتفق إذاً.. نحن أصدقاء، ولا نريد الخوض إلاّ في الأمور التي تسرّك.. ما رأيك سيد عامر؟!
– لا يوجد ما يسرّني معكم!!

– يا رجل لا تكن عنيداً.. أنا إنسان موظف. ملّت نفسي من هذه الوظيفة، تعال نزجي وقتنا الطويل بأحاديث عامة.. اطمئن لن نقترب من هذه الاعترافات..

– أية اعترافات؟ تعود، وتقول لي اعترافات..

– أنا أقول أنني أرغب في الابتعاد عن الحديث في مثل هذه الأمور..

«ذكرني بالعصفور المحترف.. وأن خطة ذاك العصفور قد خرجت من هذا المستنقع»

– حسناً.. قل لي عن ماذا تريد أن نتحدث؟

– هناك مواضيع كثيرة بإمكاننا أن نقتل وقتنا فيها. مثلا محادثات السلام، ما رأيك في السلام يا عامر؟!

– كل الناس يحبون السلام.

– أنت؟!

– بالطبع أنا أحب السلام..

– ولكن السلام العادل والشامل.. هكذا تقول المعارضة الفلسطينية..

– كل الفلسطينيين يريدون للسلام أن يكون عادلاً وشاملاً.

– لكن ما رأيك بمسيرة السلام القائمة.. سلام أوسلو؟!

– لها إيجابيات وعليها سلبيات..

– يا سلام.. أنا أتفق معك تماماً. أرأيت؟ هناك أمور بالإمكان الاتفاق عليها، أنا يا عامر، لدي ميول يسارية.. يقولون عنا في السياسة الإسرائيلية «حمائم».. نحن معتدلون، وبالإمكان أن نصنع سلاماً عادلاً ودائماً، مع المعتدلين عندكم.. يجب أن يقف دعاة السلام، معاً، في صف واحد، في وجه دعاة الحرب والتطرف.. مثلاً المعتدل الفلسطيني أقرب إليّ من المتديّن اليهودي.. أنا رجل علماني، يا عامر، أكره المتدينين

اليهود على المسبحة.. يجب أن نقيم شرق أوسط يعم فيه السلام والأمن للجميع.. لجميع أصحاب الديانات الثلاث.. نحن أبناء عمومة.. ألا تؤمن بهذا؟ هكذا عندكم في الدين.. أنا كل الذي يهمني، هو دعم الناس المعتدلين، الذين يسعون لتحقيق السلام، بصدق، من كلا الطرفين.. ما رأيك بالانفتاح والحوار بين شعوب المنطقة؟!

«دعه يثرثر بما يحلو له. أجبته على قدر السؤال لا زيادة ولا نقصان»

– أنا مع الحوار بشكل عام..

– لا مخرج لمشاكل الشرق الأوسط إلاّ بالحوار.. هل ترى كما كان في العصور الماضية، أن حرباً حاسمة تحل المشاكل..؟ هناك أسلحة دمار شامل تكفي لتدمير العالم عدة مرات. حروب هذا العصر لا يخرج فيها المتحاربون «غالب ومغلوب»، أصلا، لا يبقى أحد ليرى الغالب والمغلوب.. فناء شامل بلا أدنى شك..

صمت قليلا، مسح جبينه الذي أخذ يتصبب عرقاً ثم تابع:

– العقلاء هم الذين ينظرون في عواقب الأمور.. صدام حسين ألقى بصواريخه على دولة إسرائيل.. ماذا كانت النتيجة..؟ طيب إنسَ «إسرائيل».. احتل الكويت، فهل سمح له العالم بذلك؟! هناك إرادة دولية اليوم، لا تسمح بأي تعديل إقليمي، خاصة، في منطقة الشرق الأوسط.. أنت شاب مثقف يا عامر، وتفهمني جيداً.

استمر المحقق، تحت الاسم المزيف «كابتن داني»، في عرض أفكاره بمحاضرة طويلة، كان يتخللها بعض الأسئلة الخاطفة، فيجيب عامر عليها بكلمات قليلة، تعاني من فقر الدم، وكأنه رجل شحيح، يود لو يقطع من جلده، على أن يُنفق من كلامه، وعامر تغدو به أفكاره وتروح..

«ما أقسى أن تجلس ساعات طوال، وأنت تستمع لشخص، تكره الأرض

التي يمشي عليها.. إنه أقسى من الجَلد، أو العنف الجسدي الذي كانوا يمارسونه في السابق، والذي لا أدري: هل تخلوا عنه حقيقة أم لا؟؟ ولكن ما هو هدفه من هذا الكلام الخارج عن النص..؟ هل يأمل أن يكسب مني شيئاً من الود أو بعض الميل إليه؟! هذا مستحيل.. هل يأمل في إخماد نار التحدي المشتعلة في صدري، من خلال تحقيق بارد كهذا؟! إنه أسلوب جديد غريب وعجيب.. سأنتظر، وأرى أين سيصل بي.. أخيراً سيكشر عن أنيابه، وسيخرج لي أسلحتهم القديمة..»

قضى عامر أربع أو خمس ساعات مع «كابتن داني»، وهو يطوف به بأحاديث لا معنى لها، سوى تنغيص القلب وتعكير النفس.. كان عامر يحلل هذه المواضيع المطروحة، ويحاول الوصول إلى أهدافها.. يتحدث عن الحرب والسلام.. ثم فجأة، تجده يتحدث عن هموم الشرق الأوسط وقضاياه الساخنة، على حد تعبيره، ويعود إلى اليسار واليمين والاعتدال.. ويتكلم كلاماً كثيراً بلا معنى.. وكأنه كان يقصد إيصاله إلى حالة من التعب الذهني والنفسي!! هل يريد أن يوصله إلى درجة من الإرهاق والبلبلة؟! ثم ماذا بعد ذلك؟؟

بعد هذه الساعات الطوال، قام هذا المحقق.. مد يده لعامر مصافحاً، وكأنه كان ضيفاً عنده وانتهت الزيارة..

– أرجو أن تسمح لي يا عامر.. لقد انتهى دوامي اليوم..

ثم مخاطباً نفسه..

– إلى البيت يا «داني».. أولادك بانتظارك..

«اللعين يمارس حرباً نفسية ناعمة، تفوح منها رائحة حقدهم الأسود..»

سأل عامر:

– كم الساعة الآن؟!

– الرابعة عصراً..
– ما رأيك أن تعيدني إلى الزنزانة أيها الصديق!
– أنا الآن انتهى دوامي.. عندما ينتهي دوامي تتوقف صلاحياتي، هكذا اليوم عندنا، ماذا نفعل.. تصبح على خير، صديقي عامر..
«ما أخبث صداقتكم أيها اللئام، يا له من مستنقع خبيث.. عجبا لم يملْ قلبه ولو شيئاً يسيراً، إنه بذلك يسبح في هذا المستنقع القذر!!»
خرج هذا، ودخل آخر مباشرة.. رجل بدين وقصير. غائر الأنف، بارز العينين، لصوته رنين وجلبة، وكأنه يطبل على صفيح من التنك..
عرّف نفسه ثم شرع في محاضرة طوية..
– محسوبك «كابتن بنيامين». بإمكانك أن تدللني وتقول «بيني».. أنا لا أؤمن إلاّ بلغة العقل.. الحجة مقابل الحجة.. لا أتكلم بشيء، إلاّ إذا ثبت لدي بالدليل القاطع والبرهان الساطع.. وكذلك، فإني أحب أن أخفف عن زبائني الكرام.. لا أحب إرهاقهم.. نصل إلى الأمور من قصيرها.. نتحاور بهدوء.. الحقيقة تظهر كالشمس، ولن يقدر أحد على إخفائها.. مقدمة طويلة، معروفة ومملة، تصب في نفس الهدف.. الارهاق الذهني والنفسي.. قتل الأنفاس في الصور، وهي تتلاحق خلف كلماتهم، وتنتظر نهاية الطريق..
وقف عامر مع نفسه..
«لماذا يفرضون عليك أن تكون في دائرة هرائهم، هذا الذي لا يعرف إلاّ اتجاهاً واحداً.. لماذا لا تسير في اتجاه تشقّه أنت، بما يبعدك عن أهدافهم.. حسنا عندي فكرة رائعة. سأغرق قلبي وروحي بذكر الله.. لا إله إلاّ الله.. ما في القلب إلاّ الله.. حسبنا الله ونعم الوكيل».
سار عامر في الخط المعاكس، ينهل من معاني ذكر الله. كانت أنوار

تشرق في الصدر، وتبدد جحافل كلماتهم الجوفاء.. كان عامر مع ذكر الله، يستشعر أنه مع الله، وأن الله قريب منه، بحفظه ولطفه ورحمته.. الله لا يترك أولياءه.. يذكرهم كما يذكرونه، فيسبغ عليهم طمأنينة تلامس شغاف قلوبهم، وتعمل عملها هناك، في الترطيب والتسلية واستقرار البال.. كلام يزعزع أركان النفس، وذكر يثبت الأقدام، ويرفع دعائم الإيمان الراسخة..

وكأن المحاضر البليغ قد لاحظ شرود عامر في عالمه الخاص، فأخذ بين الحين والآخر، يلقي بسؤال يشد انتباه عامر، وعامر يلتفت بسرعة، ويجيب بايجاز شديد، ثم يعود إلى ذكر الله.. لم يكن بالإمكان الشرود الكامل عن هذا المستنقع، لأن الرائحة الكريهة المنبعثة منه كانت تقتحم على عامر، وتزكم أنفه..

أربع أو خمس ساعات من الحديث السمج، ثم وقف، ومد يده، كسَلَفه، خرج، ودخل ثالث.. ذو سحنة شرقية.. قمحي اللون، دائري الوجه، تقرأ في تجاعيد وجهه، بأنه قد تجاوز المرحلة الخامسة من عمره.. صوت هادئ ورصين، وكأنه يتحدث من مكان بعيد، يجيد العربية، وكأنه لا يعرف لغة سواها..

– أنا يا عامر صاحب المهمات السريعة.. إذا أحببت، في هذا الجزء الأخير من الليل، أن ننهي القصة، فأنا مستعد.. وإذا كنت لا تريد، فلك الأمر.. الأيام التي أمامنا طويلة، ونحن لسنا مستعجلين، ولكن أنا أنصحك أن ننهي هذه الليلة..

– عن ماذا تتكلم؟! ماذا تريد أن ننهي؟!

– يا عامر، القصة معروفة، كما قال لك «كابتن داني»، لنأخذها من «قصيرها»، لا تعذب روحك بلا طائل..

– أنتم تتوهمون، أو أنكم قد أخطأتم العنوان.
– المخابرات الاسرائيلية، كما تعلم، لا تخطئ العنوان. نحن لسنا مخابرات دولة عربية. لماذا لم نعتقل جارك..؟ اعتقلناك أنت بالتحديد.. قل لي لماذا؟!
– ربما يكون جاري محبوساً، ما أدراني؟
أجاب:
– سأعطيك طرف الخيط، تكرماً مني، رغم أنه غير مسموح لي بذلك. نحن في آخر الليل، وبيني وبينك.. نبيل وإبراهيم عندنا. صاحباك، انهم عندنا هنا.. هل تريد خيوطاً أخرى؛ أنا مستعد، ولكني أرى أن هذا كفاية، ما هو رأيك سيد عامر؟!
– عن ماذا تتحدث؟ وما علاقتي بهؤلاء الذين تتحدث عنهم؟
– ألا تعرفهم يا عامر؟! أتنكر أصدقاءك يا عامر؟! تكلم يا عامر.. صدقني أن هذا لمصلحتك.. لن ينفعك هذا العناد.. أمامك أيام وليال طويلة من السهر والمعاناة. أنت صاحب تجربة، وتعرف عواقب معاندة المخابرات الإسرائيلية، اسمعني جيداً، نحن بإمكاننا محاكمتك على اعترافات أصحابك.. أنت تعرف هذا جيداً نحن بإمكاننا محاكمتك، حسب تقريرنا السري الذي نرفعه للمحكمة.. لن نرحمك في هذا التقرير، إذا بقيت مصراً على عنادك.. أما إذا كنت واقعياً، ونظرت للأمور بعين الحقيقة والمنطق، فإنك ستوفّر على روحك الكثير الكثير مما ينتظرك.. أنت تعلم المخابرات، لا ترفع يدها ولا تسلم، سنعمل على صياغة التقرير للمحكمة معاً، دون أية مبالغة من قبلنا، سنكتب توصية لك، تبقى في ملفك كي تخدمك في الافراجات القادمة. مسيرة السلام تشق طريقها، ومع كل اتفاق، هناك دفعة من الأسرى يُطلق سراحها.. سرعان ما تصبح أسيراً

محرراً، لك احترامك بين الناس. وأنت تعلم، أيضا، بأن الاتفاق النهائي على الأبواب، لا يمكن للجانب الفلسطيني أن يوقع على اتفاق نهائي دون إطلاق سراح الأسرى كافة، بلا قيد أو شرط.. أجبني؟ هل كلامي منطقي أم لا؟

– قمة المنطق!! ولكن إذا كان عندي شيء مما تتحدث عنه.

قال عامر ساخراً:

– يا رجل «اعقل وتوكل»، هكذا في دينكم وديننا، أيضاً.. أحسبها جيداً تجد نفسك أمام حقيقة، لن تستطيع إخفاءها طويلاً.. أنا لا أطلب منك أن تساعدني، فأنا موظف، آخر الدوام أعود لزوجتي وأبنائي، وآخر الشهر أقبض مرتبي، أنا أطلب منك أن تساعد نفسك.. أن تنقذ روحك.

– هل ترى، حسب المنطق، أن مساعدة نفسي بتوريطها بشيء لم يحدث أبداً..

– ما هو هذا الشيء؟! هيا تكلم.. ها أنت قد بدأت الطريق الصحيح..

أسند ظهره مع ابتسامة عريضة وتابع بكلمات سريعة:

– أنا قلت إن عامر رجل عاقل، صاحب تجربة قديمة، ولا بد أن يزن الأمور بشكل جيد، قلت عنك أمام زملائي: «عدو عاقل خير من صديق جاهل»، لأن العاقل سرعان ما تصل معه إلى لغة مشتركة وتفاهم سريع. أنا أعدك يا عامر أن لا تطول حبستك.. الإفراجات على الأبواب، وفرج الله قريب.. «من يتوكل على الله فهو حسبه». أنت عملت ما بوسعك، والباقي على الله. أنت رجل عظيم يا عامر. ها قد بدأت الطرق الصحيح..

– أي طريق تقصد؟!

– هذا الشيء الذي تحدثت عنه، نحن نعرفه تماماً.. ولكن نريد أن

نسمعه منك.

– لقد ذهبت بعيداً.. أنا قلت لك: الشيء الذي لم يحدث أبداً..

– ولكن ما هو؟!

– هذا الذي تتوهمون به؟!

ضرب بقبضة يده الطاولة، وصاح غاضباً في وجه عامر، كعاصفة هوجاء اشتد عصفها بعد يوم هادئ:

– أنت تهزأ بنا، أتريد أن تلعب بالمخابرات الإسرائيلية؟! ماذا تحسب نفسك؟! تعرف ما بإمكاننا أن نفعل لك. لا أريد أن أذكرك بالماضي. لغاية الآن نحن نتعامل معك بشكل حضاري.. «ركبت علينا ودليت رجليك..»

ثم هدّأ من صوته قليلاً وتابع:

– يا شيخ عامر، أنا أنصحك، أن لا تثير غضبنا.. لا أريد أن أقول لك، أن بإمكاننا تحويلك إلى تحقيق عسكري.. أنت تعرفه جيداً، تركتك مع الكابتن «داني» والكابتن «بيني» طويلاً.. انقضى الليل، وأنت متفهم لكل كلامنا.. جئنا لك بكل منطق وعقل، حتى إذا بدأت الحديث بشكل منطقي، سارعت وكبتّ حديثك.. أتحسبنا أغبياء لهذه الدرجة؟!

وجّه عامر عيونه الغاضبة النظرات، كأنها نار حامية، ثم رد على الغضب بغضب مقابل:

– أنت تصطاد في الماء العكر. صاحباك أفصح وأمهر منك..

– تفسر كلماتي بمنطق أعوج، وتعمل بهذا الغضب المصطنع، كي تثبت أوهامك عليّ.

– أنا باختصار بريء، براءة الذئب من دم يوسف.

– أنت تلعب بالنار يا عامر.. لا تحسب أن مشوارك معنا محفوف

بالورود.. هل أعدد لك ما بإمكاننا أن نفعل بك؟! لقد مررت بالتجربة قبل حوالي خمس سنوات.. أضف عليها خبراتنا الجديدة معكم، مع من هم أصعب منك مرات ومرات.. لا تتأمل، ولو واحد في المئة، أن ترجح كفتك على كفة المخابرات الإسرائيلية..

ومط الأخيرة بملء فيه:

– الليل يوشك على الانتهاء.. مناوبتي معك ستنتهي بعد قليل.. لا تضيع هذه الفرصة، قد تكون الفرصة الأخيرة قبل أن نبدأ الجد معك، انتبه جيداً، التحقيق العسكري معدّ على الأبواب.

كان هذا المحقق يعدد على مسامع عامر أشكالاً وألواناً من التهديدات العنيفة التي يلجأون إليها، وكان عامر بدوره، يطلق لقلبه العنان في عالم «حسبنا الله ونعم الوكيل». يرفع من وتيرة التحدي ويهيء نفسه للمعركة القادمة.. كانت مشاعر الإيمان الصادقة تتعاظم في صدره، تشرحه، وتفتح عليه عالماً فسيحاً من المشاعر الرفيعة.. تعطر أريجها وتنشر هواءها العذب. تتعانق خلجات القلب مع معية الله الحافظة، وتنتشر أمواجها من خلال الصدى إلى ربوع الجسد، وهذه الصحراء القاحلة التي لا تمطر سماؤها ماء، ولا تنبت أرضها كلأ، ويستمر «إيلان» أفندي في عرض بضائعه الكاسدة دون كلل أو ملل.

–الليل في آخره يا عامر.. وفرّ على روحك. أنت بدأت بالحديث ثم تراجعت.. هذا هو تقريري وشهادتي عنك في هذه الليلة. سيستلمك من لا يرحمونك.. الزنازين عندنا شاغرة، والمكاتب كما تراها هذه الأيام، تحتاج إلى زبائن، وعندنا طاقم مخابرات كبير، عشرات الموظفين، بعد أن دخلت السلطة المناطق، بلا عمل.. سنتسلى بك هذه الأيام.. نحقق معك، ومع كل المقربين منك.. أمّك، زوجتك، نستضيفهم عندنا لأيام

معدودة، ما رأيك..

ضحك عامر وقال:

– وهل تتصور أن واحداً مثلي، تعرفه جيداً كما تدعي، هل تتصور لو فكرت أن أعمل بالذي تتوهمون فيه، وتتهموني به ظلما وزوراً، أن أخبر به أمي أو زوجتي؟! حينها يا لي من غبي وأحمق ومجنون.

– نحن نعلم ذلك.. ولكن لنا مآرب أخرى في اعتقالهم.

– ما هي؟!

– هذا شغلنا. أتريد أن تعلمنا شغلنا؟!

وكأنه شعر بأن ذكر الأم والزوجة قد شكل هاجساً مخيفاً لعامر، فطاب له الوقوف طويلاً على هذا الموضوع..

– كيف بك يا عامر، وأنت تسمع صرخات زوجتك، وهي تحت مطارق التحقيق، ترجونا حينها، تسترحمنا، تطنب علينا، سنقول لك: «سبق السيف العذل»، «في الصيف ضيّعت اللبن يا شاطر..» اسمع يا عامر. لم يعد لدي وقت.. ليكن بعلمك، أني رئيس طاقم التحقيق معك.. وحسب توصياتي يكون مجرى التحقيق. أعطني فرصة كي أكتب عنك؛ أنك رجل محترم، متحضر، عاقل، أهل للاستمرار معه بالحوار والمنطق.. هل ستعلم كيف سيكون حالك غداً، لو كتبت لهم بأنك رجل عنيد، ولا تنفع معه الكلمة الحسنة.. الويل والثبور لك.. اسمع نصيحتي، ودعنا نسمع القصة، في هذه اللحظات المباركة من الليل، القصة عندنا، كما أخبرناك، معروفة بأدق التفاصيل، ولكننا، مهنياً، ملزمون أن نسمعها منك، ماذا قلت؟!

– طالما أن القصة التي تتحدث عنها معروفة لديكم، فأخبرني بها؟!

«لقد تسرعت يا عامر.. لا داعي لهذا الطلب، وكأنك تقر معهم بأن هناك

قصة.. يجب أن تنسف هذه الفكرة من أساسها..»

– أرأيت كيف أصبح هامش الخلاف بيني وبينك ضيقاً. كل المشكلة الآن؛ من يبدأ بالحديث أولاً..

– أنا سألتك من شدة تأكيدك، أن هناك قصة.. أردت أن أتأكد وأرى.. هل تتطابق مع القضية التي عندي أم لا؟!

– حسناً، فلتبدأ أنت أولا.. أنا أعدك بأن أقص عليك كل ما عندنا..

– قصتي كلمات معدودة!

– حسنا تفضل.

– قصتي أني وقعت بين أيدي محققين، لم تسعفهم خبراتهم بشكل جيد. إنهم يتوهمون، وينسجون من بنات أفكارهم ما يثير العجب والاستغراب، سيتواصل معي التحقيق حتى تثبت براءتي، بإذن الله.. وهذه كل قصتي.

قفز من مكانه، ضرب الطاولة بقدمه.. دار حول عامر بعصبية، تناثرت من ثنايا وجهه. صال وجال أمام عامر.. حدق به ملياً.. بدت الحيرة تتغشى عينيه، وترسل سحبها السوداء على وجهه.. فُتح الباب ودخل وجه جديد من المحققين.. مدّ المحقق المهزوم يده مصافحاً وقال:

– حظك من باب السماء.. لقد انتهى دوامي اليوم.. حظاً أوفر سيد عامر..

وانصرف مخلفاً وراءه الوجه الجديد؛ شاب في بداية شبابه.. رفيع فارع الطول.. محدودب الظهر.. له عينان زرقاوان، تطلان بحذر من صفحة وجهه البيضاء.. أيد طويلة، ومدلاة على جانبيه، وكأنها مطارق مدرس، من الذين يستخدمون العنف في تدريسهم.. له صوت رفيع متطاول كطول رقبته المعوجة..

تبدل على عامر ثلاثة محققين، وهذا رابعهم.. كانت ليلة حافلة بكل ما هو ممل ومثير للغثيان.. وكان النعاس قد أخذ طريقه إلى عينيه، وضرب أطنابه في جميع أوصاله.. النوم يعانقه بعنف، ويحاول الهرب من بين أيدي هؤلاء، قطاع النوم على عباد الله. ليلة مرهقة أصبحت الزنزانة جنة عامر، التي يُمنّي بها نفسه..؟

– صباح الخير سيد عامر.. أعرفك على نفسي «كابتن شلومو».. بداية هل صليت الفجر؟!

– ما رأيك أن نبدأ يومنا ببركات الصلاة..

– هل طلع الفجر؟!

– نعم، الساعة الرابعة والنصف الآن..

– أريد الوضوء..

– تفضل..

«هذه أول نكتة هذا الصباح.. رجل مخابرات حريص على بركات الصلاة..»

– ماذا تريد مني يا عامر.. أنا والله بريء.. لماذا سحبتني من بين يدي زوجتي وأولادي.. ماذا تريد مني في هذا الصباح؟؟

«رجل مخابرات ونكّيت.. والله عشت وشفت يا عامر..»

– لماذا أنت عابس ومكشر يا عامر.. يا رجل افردها.. ابتسم للحياة تبتسم لك.. اسمع يا صديقي العزيز.. أنا بالنسبة لي أحب الفرح والانبساط.. عندك نكت؟ سأفتحها أنا اليوم «مرة واحد حبّ قاموا طحنوه»، يللا يا عامر، أَخرج نكتك..

«يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. صبّح هذا الماكر يحلم في النكت»

– يا رجل تعال نضحك ونفرفش.. دعنا من التحقيق والمحققين.. صدقني إني أكره هذه المهنة، ولكن ما العمل.. أنا مضطر لهذه الوظيفة، ولكن

كما ترى أقضيها في عالم الضحك والنكت، مرة واحدة يا عامر، وهذه نكتة حصلت معي هنا، قال هذا الواحد: أما «هتياشي».. هل هو اعتراف؟ هل هو اسم تنظيم جديد نحن لا نعرفه. رجعنا إلى قاموس اللغة العربية فلم نجد لها أثراً، سألت كل المحققين عن معناها، فلم يتعرف عليها أحد.. رجعت إليه، ورجوته أن يفسِّر لي معناها، فقال هذه كلمة تطلق على الذي لا يفهم في السياسة. «أنا هتياشي»، أنا بريء والله بريء. واستمر هذا المحقق البارد يعرض نكاته السمجة حتى انتصف النهار على ما أعتقد.. لم يفتح بوابة التحقيق.. كان هدفه اشغال ذهن عامر بأي شيء، المهم أن لا تغمض عيناه، وأن تبقى أعصابه متحفزة.. وعندما يصل إلى حالة الإرهاق النفسي والجسدي هناك خطة جاهزة. وكان عامر يعمل جاهداً على أن لا تنجر نفسه إلى حبائل مصايدهم، يروح بعيداً، ويسرح في ملكوت مولاه.. يستذكر طويلاً تجربته الأولى في التحقيق:

«تذكر يا عامر، عندما كانوا يتناوبون عليك بركلاتهم، ووخزاتهم التي كانت تطرق جدران رأسك بعنف تارة، وتارة أخرى تقض مضاجع عظام صدرك، الشبْح العنيف الذي جعل منك هيكلاً عظمياً متهالكاً.. كانت مؤخرتك تنزف دماً، وكانت يداك وكتفاك تتقطع ألماً من القيد، الذي يحكمون شدّه بكل ما أوتوا من حقد، أنا لا أنسى تلك الأيام، ولا أستبعد أن يعيدوا سيرتها مرة أخرى. إنها على مساوئها أرحم من هذا الكلام الممل، وهذه السماجة ثقيلة البرودة وعفنة الرائحة.. يغرقونني هذه الأيام بمستنقع قذر مما تلقيه أفواههم.. أعجب منهم! لا يملون أم أنهم أدمنوا، وهذا الذي يدّعي الدماثة يصب كل برودته في أذني.. ليتهم يعودون للأسلوب القديم، لقد اشتقت لتجسيد بطولة بلال.. أريد

أن أضع نفسي على المحك.. أين وصلت عزائمك يا عامر؟ قبل خمس سنوات قلت: (إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان) دفعت الثمن غالياً، لو لم يكن في سبيل الله، أهناك احتمال، ولو واحد في المائة بعد هذه التجربة المريرة أن لا تقدر على التآسي بروح بلال..؟ ضعوا صخوركم على صدري.. ألهبوا جسدي بسياط أحقادكم.. أخرجوا لي كل مكر ورثتموه كابراً عن كابر.. أخرجوا مكر بني قريظة وبني النضير وخيبر.. أرسلوا لي كل «خنازبكم»*، لن أكون بإذن الله «برصيصاً».. أنا عامر.. عامر قلبي بذكر الله ومعيّته..»

ما زال المتطاول يزيد الجو برودة على برودته.. يطحن بين أسنانه نكتاً ممجوجة.. يلوكها.. ويقهقه معها كأنه طفل صغير، في بداية فهمه واستيعابه لنكات الطفولة البريئة. حاول مراراً استدراج عامر لتبادل هذه الدماثة فلم يفلح.. بقيت من طرف واحد. عامر لا ترتسم على وجهه أية ابتسامة.. فقد كان النعاس يأخذ منه كل مأخذ، ولم يعد هناك طعم لأي شيء سوى النوم.. وكانت سِنَة من النوم أحياناً، تحاول بسط نفوذها، فيهاجمها المحقق الهمام، يطرق بيده الطويلة على كتف عامر ويهتف:

– كيف تترك ضيفك وتنام، هذا لا يجوز في الأصول العربية.. لماذا دعوتني إلى هذه الحفلة؟! ها أنا بين يديك.. قل لي ماذا تريد منّي؟! اسمع يا عامر عندي اقتراح.. أنا أحب المرح والانفتاح إلى أبعد الحدود كما ترى، ما رأيك أن نخرج للشمس.. نُخرِج هذه الرطوبة من أجسادنا، ونجدد الحياة في أرواحنا.. هل رأيت مكتباً للتحقيق تحت الشمس في الهواء الطلق..؟ أنا الكابتن «شلومو».. ستعرف كم هو جميل ورائع

* خنزب من أسماء الشيطان.

صديقك «شلومو».
ردّ عامر بشيء من الحزم:
– لا داعي لهذا الاقتراح.. إذا كنت تريد رأيي في الموضوع، فأعدني إلى الزنزانة ساعة أو ساعتين ثم..
– ألم تمل من الزنزانة؟! يا رجل أعرض عليك الشمس فتطلب زنزانة.. على كل تذهب إلى الشمس قليلاً، ثم تعود إلى الزنزانة..
قام المحقق الدمث، أخذ بيد عامر. وضع النظارة السوداء على عيني عامر برفق، ثم سار به خارج غرف التحقيق، وجد عامر نفسه خارج الباب الرئيس لهذا المسلخ النكد.. لامس وجهه نسيم عليل بارد. عبّ هواءً نقياً، ملأ صدره.. شعر بدفء لذيذ يدغدغ مسامات جلده.
اكتنفته ارتعاشة وجدانية، سرت حلاوتها في ربوع جسده، عندما نزع عن عينيه النظارة السوداء، أغمض عينيه ثم فتحهما من جديد، على ضوء باهر أزاغ بصره، ثم ما لبث أن ثبت النور، ورأى ما حوله بوضوح.. طاولة بلاستكية، تصطف حولها مجموعة من الكراسي..
– أجلس هنا..
جلس فوجد طبق فاكهة وزجاجة كولا مع بعض الكاسات.. جلس شلومو قبالته وسأل:
– ما رأيك؟! «جلسة رومانسية»..؟ الشمس تحيي القلوب، وتنعش الأرواح. هنا يحلو الحديث وتفتح النفس شهيتها للنكات الجميلة. تفضل، اشرب كولا..
وسكب له كأساً..
«أفلام عجيبة.. ماذا يريد من هذا الفيلم..؟ تحقيق في الهواء الطلق.. أنا لا أكاد أصدق.. ولكنه لا يحقق. هل جاء من بيته لينكت. مستحيل

إن له مآرب أخرى، سرعان ما سأكتشفها، بإذن الله. ومع حلاوة هذا اللقاء مع أشعة الشمس بعد فراق طويل، وعلى أنغام صدره مع هذا الهواء العليل، ثارت شهية عامر للحديث فسأل:

– أنت سألتني مراراً ماذا أريد منك.. دعني أسألك: ماذا تريدون منا أنتم؟! أقصد أنتم اليهود، ماذا تريدون من الشعب الفلسطيني؟

– لا نريد شيئاً..

– ألا تشعر بأنكم تحتلون شعباً آخر؟!

– أنا بالنسبة لي ضد الاحتلال، ومع إقامة دولة فلسطينية مستقلة.

– تتكلم وكأنك فلسطيني!

أنا أتكلم كيهودي، يريد الحياة لنا ولكم.. دولة إسرائيل بجانب دولة فلسطينية، مع تعايش مشترك، وأمن وسلام. اسمع.. نحن نحب السلام وانتم تحبون السلام.. والمطلوب هو أن نعمل مصنعاً يُنتج السلام.

– مثل مصنع «أوسلو»؟!

– أنا ضد أوسلو لأنه لا يعيد الحقوق لأصحابها.

وبنبرة خطابية تابع:

– إن السلام الذي لا يعيد الحقوق لأصحابها مصيره الفشل والزوال.. أنا أطالب بالسلام الشامل والعادل.

– هل تقر بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم؟؟

– بالطبع. أنا مع عودة أربع ملايين لاجئ فلسطيني، ومع عودة المهاجرين إلى البلاد التي أتوا منها..

– أنا لا أصدق ما تقول!!

– ولكني لا أقول إلاّ الحق.. ولكن هذا الحق غير واقعي، وغير ممكن، لذلك تعال لنفكر فيما هو ممكن وواقعي.. بالإمكان إقامة دولة فلسطينية

في «يهودا والسامرة» وقطاع غزة ثم يعود اللاجئون إلى هذه الدولة.. ستكون حينها دولة جارة وعزيزة، رغم أنها ستكون سمينة بحاجة إلى «ريجيم».

– وأنتم تتكفلون بالريجيم للشعب الفلسطيني باستمرار.. حصار اقتصادي، ودمار، وقتل يؤدي إلى «الريجيم».

قهقهه حتى بدت نواجذه وأنيابه الصفراء..

– ها أنت تجيد النكتة.. أرأيت كيف أخرجت من قلبك مواهبك البديعة.؟

التفت عامر، فإذا به يسير مع محقق، وينظر إليه من طرف خفي.. كانت عدة أمتار تفصل بينهما.. إذاً هذه هي لعبة هذا الخبيث تحت الشمس.. يريد أن يُدخل الهواجس إلى صدر إبراهيم.. ماذا تراه يقول عندما ينظر ناحية الطاولة فيرى جلسة الانسجام هذه مع هذا الخبيث؟! لقد انكشف اللثام عن دماثته المصطنعة.. أما إبراهيم فهل تراه تنطلي عليه هذه الحيلة؟! لقد تذاكرنا طويلاً في شؤون أساليب التحقيق.. لم تخطر ببالنا هذه الحيل، ولكن القواعد العامة هي هي.. العنف والمكر.. العنف يواجه بالجلد والصبر، والمكر يواجه بالذكاء والخبرة الواعية لأساليبهم الماكرة.. والاثنان لا بدّ لهما من الاستعانة التامة بالمولى عزَّ وجل، حتى تتمتع بالقوة المعنوية العالية.

يا إلهي.. هل يتمتع إبراهيم بهذه الخبرة الكافية لهذا المكر الجديد..؟ ونبيل، هل تراهم مروا به عبر طاولة الأنس هذه من دون أن أراه..؟ هذا أمر مؤكد.. لن تنطلي عليهم هذه الحيلة، فالثقة بيننا عالية، وتناطح السحاب.. ولكنها جلسة كنت فيها في حالة انسجام مع هذا الخبيث.. لا شك أنها ستترك بعض الأثر السيء في صدر إبراهيم ونبيل.. (وأفوض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد).. كان من المفروض أن تقلب هذه

الطاولة في وجه هذا الخبيث، عندما رأيت إبراهيم، حتى تكون رسالة لإبراهيم.. أما أن يراك لا تبدي حراكاً، فهذا أمر صعب..

أعادوا عامر إلى مقرّ أوكارهم.. ودّع كابتن «شلومو»! وعاد «داني» من جديد.. بدا وكأنه جدد نشاطه، كمن يعود بعد عطلة رسمية. شغل أسطوانته الأولى دون كلل أو ملل.. أربع ساعات، والنعاس يغالب عيون عامر.. كلما مال رأسه، وأغمضت عيناه، وجد هذا اللعين يهزه من أكتافه ويقول له:

– لم يبق إلاّ القليل يا عامر.. لنطابق ما عندك على ما عندنا، هذا كل ما نريده.. أنت ترهق نفسك بهذا الإصرار الذي لا مبرر له. هل ترانا نتركك دون الوصول إلى المطلوب..؟ الكرة في ملعبك وأنت حر..

وانقضى نهار، وبدأ الليل وهم يتناوبون على عامر.. كان الهدف واضحاً، وهو إبقاؤه بلا نوم مع إرهاق الذهن، وبالتالي إضعاف نفسيته، وتردي الحالة المعنوية.. وأصبح عامر بعد مضي حوالي ثمان أربعين ساعة في ضنك وكرب شديدين. أصبح في برزخ بين النوم واليقظة.. يرى نفسه أحياناً على أعتاب أحلام مزعجة، وما يلبث أن يعود سريعاً، فتتحطم هذه الأحلام على صخرة الواقع، فتحدث دويا تنتشر امواجه في حنايا جسده.. الرأس ثقيل، والأشياء أصبحت تدور، والأرض تميد من تحته. كان أحياناً، يسترق سِنة سريعة من النوم، فيشعر بعدها براحة عجيبة ويتذكر قوله تعالى: (إذ يغشيكم النعاس أمَنَة منه).. يلجأ إلى الله.. يستحضر معيته، وثقته بعونه، وتثبيته، ينشرح صدره، ويشعر بحلاوة النصر القريب على هؤلاء القردة، الذين يتفننون بكل ما أوتوا من مكر وخداع..

في آخر الليل جاءه «إيلان»، الذي ادعى بأنه كبيرهم، أو حاخامهم الأكبر.. كان يحمل في يديه مجموعة أوراق.. سلم بحرارة وقال:

– (جئتك من سبأ بنبأ عظيم): هذه من القرآن صحيح؟! الآن نستطيع إفحامك بسهولة.. «لقد قطعت جهينة قول كل خطيب». أتدري ما هي هذه الأوراق؟

ولوح بها أمام وجه عامر

– إنها إفادات إبراهيم ونبيل.. هل بقي لك شيء الآن؟ أتقرأ العبرية؟ أو دعني أنا أقرأ لك.. أبدأ بإفادة إبراهيم.. أعترف بأننا قمنا بتشكيل خلية، قامت بالتخطيط والتنفيذ..

فُتح الباب ودخل «بيني».. تكلم «بالإيدش»* مع إيلان، والذي بدوره توجه إلى عامر وقال:

– اسمح لي.. مطلوب لاجتماع. سيبقى «بيني» معك..

ثم، وهو خارج تكلم قليلاً مع «بيني» بالعبرية ثم انصرف:

– آه سيد عامر.. كيف حالك؟

قالها ببرود

– الحمد لله..

– بعد الذي قاله لك «كابتن إيلان»، لا يوجد هناك مفر من قول الحقيقة..

– وماذا قال لي؟!

– أحضر لك إفادات أصحابك، وقرأ لك منها، هل هناك وضوح أكثر من وضوح الشمس؟! لقد انكشفت القصة بأكملها يا عامر.. دعك من أوهامك..

– أية أوهام..؟ أنا لا أتكلم غير الصدق..

– يا أخي دعك من الحديث عن الصدق.. نحن نعلم أن دينكم يُجيز

---

* لغة عبرية قديمة للمتدينين اليهود.

الكذب على الأعداء.. لا أقول إنك تكذب، ولكنك لم تقل الصدق، لغاية الآن.. المهم، ألا تصدّق إفادات أصحابك واعترافاتهم؟! إنها عندنا بأدق التفاصيل، حتى النكات التي كان يتكلم بها أصحابك نعرفها.. قل لي ألم تكن النكتة المفضلة لإبراهيم، نكتة النحوي الذي كان يلقن أباه عند الموت، فانشغل بإعراب «لا إله إلاّ الله»، عندما أخطأ أحدهم في حركاتها؟ فقال أبوه لأبنائه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: لم يقتلني مرضي وإنما قتلني أخوكم بنحوه هذا.. عرفنا كل شيء عنك وعن أصحابك يا عامر.. ماذا قلت.. ألا تريد أن نتكلم؟!

– هل عرفتم شيئاً لم يحدث، تريدني أن أتكلم عنه؟

ثارت ثائرته.. كزّ على أسنانه، وقال:

– نحن نعرف عنك كل شيء.. ونعرف كيف تنام مع زوجتك..

ورد عامر بغضب أشد:

– اخرس.. أنت لا تعرف شيئاً..

– أتحداك إن كان عندك شيء لا نعرفه..

– أنا أحذرك.. إياك أن تقترب من العرض.. لم يبق لنا ما نستميت من أجله غير العرض..

– معاذ الله. هل أنا مسست عرضك لا سمح الله..؟ هل تقصد حكاية نومك مع زوجتك..؟ هذه أمور نتحدث عنها دون حرج.

– هذا عندكم، أما عندنا فإنه يمسّ بمروءتنا..

– أنا من ناحيتي، بإمكاني أن أحدثك كيف أنام مع زوجتي.

– لست بحاجة إلى هذا الحديث.

– حسنا لنعد إلى موضوعنا الذي أصبح معروفاً ومكتوباً عندنا بالحرف.. ما هو رأيك باعترافات أصحابك؟!

– هذا شيء لا يخصني ولا يعنيني..

– إذاً فأنت قرّرت العناد والتحدي..

– أنا لست عنيداً ولا أتحدى أحداً.

– فلماذا لا تتكلم إذاً؟

– لأنه لا يوجد عندي شيء مما تتحدثون عنه.

– عن ماذا تتحدث؟

– عن قصص نسجتها خيالاتكم.

– ما هي هذه القصص؟!

– إنها عندكم كما تدعون، وأنا لا علاقة لي بها..

واستمر معه هذا المحقق اللجوج في لفّ ودوران، دون نتيجة، كمن يريد طحن الماء، وكان عامر قد بدا عصبي المزاج.. تستفزه كلماتهم، وتشعل في صدره نار الغضب والتحدي.. تداعيات الجسد والأعصاب المرهقة تطالبه بالنوم، بعد أن تخرج له كل عناصرها في تظاهرات صاخبة.. تجمد شبح النوم على مقربة منه.. قطاع الطرق يمنعونه من الاقتراب، أو معانقة هذا الهيكل الذي تسكن فيه كل أشكال الأعياء والمعاناة.. وأصبحت تجوس في خواطره مسألة الاعتراف. يدق سؤالٌ إسفينه في الأعماق، «هل هذا ممكن؟! ماذا لو أنّ أصحابك اعترفوا فعلاً عليك؟! هل تصدقهم يا عامر؟! (إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا).. كيف إذا جاء بالنبأ يهودي صهيوني؟! ليس فاسقاً فحسب، بل مخابرات، أيضاً.. يا للكارثة!! إنْ صدقتهم..!! تعلم أنهم يكذبون، ويروغون كما تروغ الثعالب، وتعلم تماماً، أن الاعتراف لن ينجيك من هذا العذاب، بل سيزيدهم إصراراً على طلب المزيد من الاعترافات.. الاعتراف يزيد من معاناتك بلا أدنى شك.. ليس لك إلاّ الله.. ارفع حاجتك إلى مولاك، واصبر،

(وما صبرك إلاّ بالله). هذا هو المحك يا عامر.. رفعوا العذاب الجسدي واستبدلوه بالعذاب النفسي، وهذه الحالة الشاقة التي وصلت إليها تحتاج إلى أن تسارع وتلجأ إلى حمى الله. تفيأ ظلال جنتك.. كن مع الله، ترَ الله معك.. (ليس لها من دون الله كاشفة).. يا الله، يا الله. واستمر عامر في ذكر «الله» بلسانه وقلبه، حتى ملأت جوانحه حبا بالله وطمأنينة. رحل بعيداً عن عوالم نكدة، أبت إلاّ أن تلوث أجواءه بأعظم ملوثات القلب.. أصبح عواء هذا المحقق لا يسمع منه إلاّ لهاث كلهاث الكلب، (إنْ تحمل عليه يلهث، وإن تتركه يلهث)..

ثم عاد «إيلان» بعد عدة ساعات قضاها في مستنقع «بنيامين»..

– سيد عامر، كيف حالك الآن. أين وصلت معك الأمور، بعد أن «استوت الطبخة»؟

– أية طبخة، لا يوجد عندي طبخة، ولا بطيخ.

– أقصد القصة؛ القصة التي ذكرت لك اعترافات أصحابك عنها.

وكان عامر في حينها، يدفع النوم بكل ما أوتي من قوة، بعد أن غاب النهار، ولبست الدنيا ثوب حدادها، لليوم الثالث على التوالي، وهو في هذا الكرب الشديد.. وظهرت في ردوده عصبية واضحة، ضعف في التركيز، شيء من الهلوسة والكلمات غير المنضبطة التي تخرج دون أن تتوازن بشكل جيد، هذا الأمر شجعهم على أن يستمروا في الضغط عليه، وأن يبقوه أطول فترة ممكنة، من غير أن تمس عينيه سِنة من النوم. أصبحوا يرون أن انهياره قريب، وقد بات على مرمى حجر.

قال له «إيلان»:

– أنت لا تصدق ما ورد في إفادات أصحابك؟! أمرك عجيب!! اعترافات واضحة تدير لها ظهرك.. عظيم.. أنا أقدر المأزق الذي أنت فيه.. أنت

سجين قديم، وصاحب خبرات اعتقالية وأمنية عريضة.. أن تعترف؟!
أمر لا يليق بك تماماً.. اسمع بإمكاننا أن نعقد اتفاقاً بيننا. اتفاق
شرف.. أي حديث عن القصة يبقى سراً بيننا. أنا أتعهد لك ب\أن لا
يخرج من بين هذه الجدران.. وأنت غير ملزم بإعادة ما يقال هنا في
إفادة الشرطة.. تعلم أن المحكمة لا تعترف إلاّ بإفادة الشرطة.. لك
الحرية أن تكتب فيها ما تشاء.. الذي نريده هنا سيبقى بيننا. بيني
وبينك، فقط. هدفنا هو خدمة السلام، وهذا لا يتم إلاّ من خلال تحقيق
الأمن.. والذي أريده منك، هو أن نمنع حدوث عمليات إرهابية.. فقط أن
أتأكد من المعلومات التي لدينا بمطابقتها مع المعلومات التي لديك، ثم
بعد ذلك نمنع سفك دماء بريئة جديدة.. أما عن الإفادات والمحاكم، فهذا
أتعهد لك به.. لك أن تكتب في إفادة الشرطة ما تريد، ولك عهد عليّ أن
يبقى الأمر بيني وبينك، بلا أي شريك ثالث. ما رأيك الآن، أمام هذا
العرض المغري؟! فرصة عظيمة جاءتك تسعى بين يديك..
«الخبيث تناسى تقاريرهم السرية التي يضعونها بين يدي محاكمهم
الجائرة»
ردّ عامر بكلمات نائمة خرجت من ثنايا تثاؤب عميق:
- لا أدري أنا ما الذي تريده مني.
- القصة.. هيا.. تكلم.. سم الله.. هيا يا عامر.
- أية قصة هذه التي لمستني بها.. دعك من هذه الأوهام.
ضرب بكفي يديه الطاولة وهبّ واقفاً يعربد:
- لقد طفح الكيل.. أنت رجل عنيد لا ينفع معك الجميل.. أنصحك،
لآخر مرة، أن لا تخرجنا عن صوابنا.. أنت واهم.. تتوهم أنك تستطيع

الحاق الهزيمة بجهاز المخابرات الإسرائيلية.. هل تعتقد أننا نسلم بالهزيمة، وخصوصاً أن خيط القصة كلها عندنا؟! انزل إلى أرض الواقع.. لا تضيع كل هذه الفرص.. ماذا تريد الآن؟! هل تريد أن تحضر لك صاحبيك وتسمع منهم اعترافاتهم..؟ حسناً.. سنحضرهم، ولكن بعد ذلك لا يمكن أن أتصورك مصراً على عنادك، ولو للحظة واحدة.. اعترافات أصحابك أمامك تضعك على مفترق طريق.. إما القصة كاملة أو الموت الزؤام.. أتدري شيئاً عن هذا الموت الذي يقف بانتظارك..؟ إنه الموت بالألوان، هل سمعت أذنك أو رأت عينك مثل هذا الموت..؟ أرجو أن لا نضطر لنريك إياه..

غادر «إيلان» غاضباً، وجاء صاحب النكتة الباردة. كان واضحاً بأنه جاء كي يطيل عمر اليقظة عند عامر، ويطرد عن جفونه النوم بأي شكل من الأشكال.. اليوم الثالث ينتهي بعد أن أخرجوه من زنزانته الحبيبة.. أصبحت الزنزانة من أعز أمنياته.. دقائق من النوم الهادئ بعيداً عن هذه الوجوه النكرة، تساوي الدنيا وما فيها. «شلومو» يلقي بنكته المكررة، وعامر يقلب، بتركيز ضعيف، هذا الذي عرضه «إيلان»:

«ماذا يا عامر لو اعترف أمامك نبيل أو إبراهيم أو كلاهما.. هذا مستحيل!! ضع هذا الاحتمال في الحسبان حتى لا تُصدم.. هل ستبقى حينها مصراً على عدم الاعتراف؟! دون أدنى شك.. لا يمكن لي أن أقبل بالهزيمة وأمام من؟! أمام هؤلاء اليهود.. هؤلاء الشرذمة، شذاذ الآفاق والأديان؟! ولكن كما تعلم: المحكمة تأخذ باعترافات الغير.. انتبه يا عامر.. اعترافات الغير ليست كاعترافاتك أنت، فاعترافك هو سيد الأدلة.. إن اعترفوا عليك، لا سمح الله، سيطلبونهم للشهادة، ولن يشهدوا عليك حتماً.. لذلك، ليس لك إلاّ ثباتك.. عونك يا إلهي. نعم، إن قوتك من خلال

استعانتك التامة بالله.. عندما تفتح على مرجل عزائمك مصدراً عظيماً من مصادر الطاقة، فإن قوتك لن تخبو، وستبقى فوق قوتهم، بإذن الله. هذا المصدر العظيم للطاقة، هو انفتاحك على قوة الله، وعونه، وحسن حفظه، ورعايته.. اللهم يا لطيف.. يا ذا الجلال والاكرام.. أنت وحدك الحي القيوم الحافظ الوكيل.. أنت حسبي لا إله إلاّ أنت يا مغيث أغثني».

كان «شلومو» يحاول جاهداً إيصال عامر إلى حالة من الاسترخاء التي تضعف فيها روح التحدي.. يكسر جمود العناد، ويذلل مشاعر الأنفة والكبرياء التي ما زالت صامدة رغم هذه الأيام الطوال، ورغم كل ما قُرئَ على رأسه.. تستطيع أن تملأ مجلدات من الكلام الذي يرهق الأعصاب.. ترغيب وترهيب وصلف وقلة حياء ومكر وخداع ولف ودوران.. راغوا به كما تروغ الثعالب بضحيتها، وأنّى للثعالب أن تصل إلى ما وصلوا إليه..

وفي تلك اللحظات، التي كان «شلومو» يلوك نكاته الفارغة، كان عامر يحضر نفسه لاستقبال أصحابه، وهم في حالة الاعتراف.. يشحذ هممه لمواجهة أقوى، لأن شراستهم ستزداد، وسيشتد أوارها. ستكشف معركته معهم عن ساقها.. لن يتركوه يعود إلى الزنزانة، لأخذ قسط من النوم إلاّ بالاعتراف، وعندها تطرق بابه هذه الكلمة الفكرة، الاعتراف، كان يسارع إلى طردها شرّ طردة، يستذكر الهزيمة أمام هؤلاء.. أنّى له أن يخرجهم منتصرين، ثم يلوذ إلى سجن حسراته، قبل ذاك السجن البغيض الذي ما زال شبحه قابضا على أنفاسه، ورابضا على صدره.

«أتريد أن تتابع تربية ولدك الوحيد يا عامر من وراء الشبك، زيارة كل أسبوعين، زواج بالمراسلة، وأبوّة بالمراسلة. كل معاني الحياة تقطّعها أسوار السجن العالية إرباً.. والله يا عامر، أن تموت ألف ميتة خير لك

من ذاك المصير.. أن تعود سيرتك الأولى في السجن! الغبي يهددني بالموت الزؤام.. ألا يعلم أن هذا الموت هو السجن بعينه.. نموت كل يوم مئات المرات، وبكل الألوان. أقسم بالله العظيم على أنهم لن ينالوا مني كلمة واحدة، مما يريدون.. عونك ربي.. يا لطيف يا لطيف».

فكر عامر في شأن هذا الذي يدّعي بأنه لا يؤمن بالتعذيب في التحقيق، وبأنه يساري ليبرالي حرّ، يؤيد حركات السلام التي ما فتأت تتباكى على السلام الضائع، في نفس الوقت تشارك الآخرين في نتف ريش حمامة السلام المزعومة..

«ماذا لو طلبت منه أن يعيدني إلى الزنزانة ساعة أو ساعتين.. لا، لا يا عامر، سوف يعتبر ذلك نقطة ضعف.. سيشعر بذلك إن اقتربت من النهاية التي يتمنونها .. ستريهم نفسك؛ بأنك أصبحت على حافة الانهيار.. إياك.. إياك أن تفعل».

كان ذلك اليوم، هو يوم الخميس. الوقت عصراً، أي عصر اليوم الرابع بعد إخراجه من بطن الزنزانة إلى هذه المخالب البشرية.. وكان عامر يسترق النظر إلى ساعة المحقق فيعرف الوقت.. يقارن.. أين عصر هذا العالم الأسود، والمحشور بين هذه الجدران الضيقة..؟ لا يطل في هذا العالم إلاّ على هذه الوجوه، وكأنها قطع من الليل، وكذلك هذه الصورة التي تحمل كل هذه الأوزار.. صورة حاخامهم الأكبر «هرتزل» بنظراته التي تصب المقت والعذاب، ولا تعرف في الحياة سوى هذا الذي يهددون به؛ الموت الزؤام. أما عصر العالم الآخر، فيا له من عالم رحب، تجوب حناياه شمس الأصيل..

«تذكر يا عامر عندما كنا نخرج إلى الجبال المجاورة، تداعب وجوهنا نسائم الهواء الطلق. نمتع أبصارنا بالجبال، ذات الحلل الزيتونية

الخضراء.. تتهادى بين أغصانها شلالات الشمس الذهبية. تعانقها بعشق أبدي دافئ، ثم تودعها على أمل اللقاء القريب. نرقب ألم الفراق حيث تسافر الشمس، وهي تجر خلفها نور الحياة، فتترك الكائنات خلفها تتخبط في ظلمة الليل البهيم. ها أنا غارق منذ أكثر من عشرة أيام في ليل طال طويلاً، ليته ظلام الليل.. إنه ظلام هذا الصنف من المخلوقات التي تدّعي انتسابها إلى صنف البشر ظلماً وزوراً..»

فُتح الباب ودخل «إيلان» ومعه نبيل معصوب العينين بنظاراتهم السوداء.. وقف مع نبيل على مدخل الغرفة والباب مفتوح ثم سأل:

– نريد أن نسألك سؤالا واحداً يا نبيل.. سؤالاً واحداً، فقط نريد جواباً دقيقاً عليه.. نعم أو لا.. اسمع السؤال جيداً يا نبيل قبل أن تجيب.. هل اعترفت يا نبيل؟

بصوت ضعيف خفيض أجاب:

– نعم.

صاح عامر:

– لا. إنها خدعة يا نبيل. شدّ حيلك واعتصم بحبل الله..

دفعه «شلومو» وحالوا بين عامر ونبيل، دون أن يتبادلا أية جملة مفيدة.

قال «شلومو»:

– لقد انتهت القصة يا عامر. لم يتبق لديك أية حجة لإخفاء أي شيء عنا. لقد سرنا معك إلى نهاية الطريق. «لاحق العيّار لباب الدار».. احمد ربك على هذه المعاملة التي لم يحظ أحد بمثلها غيرك.

«شلومو» يلف ويدور في كلامه الممجوج وعامر يحلل هذه الكلمة.. «هل اعترفت: نعم».. يا لهم من مخادعين.. اعترف بماذا؟ إنها تحمل في طياتها الكثير من الاحتمالات، قد يكون قد حمل نفسه تهمة بسيطة، كي

يلقم أفواههم بها، ويقصر فترة التحقيق. وهناك احتمال أن يكون قد ضعف في لحظة من اللحظات، فاعترف بشيء ما، ولكن ما هو؟ لماذا لم يتبعوا سؤالهم الأول بسؤال ثانٍ: عن ماذا اعترفت؟! إنها خدعة يا عامر.. أخذوا منه شيئاً ويريدون منك بقية الأشياء.. أنا متأكد من قوة نبيل ورباطة جأشه في التحقيق، ولكن أمام هذا العذاب النفسي، وغياب النوم الطويل قد يصل إلى حالة من عدم التركيز، يهلوس بها اللسان بشيء مما يريدون.. إنه الصيد في الماء العكر.. وأي عكر هذا الذي يكون بعد عدة أيام، يقضيها أحدنا دون نوم تحت سمعهم وبصرهم وتحت مطارق كلماتهم الجوفاء التي لا تزيد المرء إلاّ خبلاً لولا ذكر الله ورحمته..؟ أحمد الله، كلما اشتد ضغطهم عليّ، اشتد إقبالي على الله. أخرج كل مكنونات قلبي الإيمانية، وأوجه شرائعي إلى أرحم الراحمين.. سرعان ما أعود بالثبات وبرد اليقين وطمأنينة الإيمان. إنها «أحد، أحد» الخالدة، وصيحة بلال رضي الله عنه، التي تفتّت كل الصخور التي تلقى على صدورنا، سواء كانت مادية أو نفسية.. ما أعظم اللجوء إلى حمى الرحمن.. يا الله يا قوي، قوِّنا.. يا معين أعنّا.. يا نصير انصرنا..»

واستغرق عامر في معانيه الإيمانية السامقة، حتى أصبح كتلة من الإيمان الملتهب، تصهر كل أراجيفهم الباطلة. أصبح لا يرى في عالمه الداخلي والمحيط به إلاّ الأحد.. الأحد بلطفه وفضله وحفظه، ويرى الجانب الآخر من هذا الضنك.. جانب لطف المولى الذي لا ينفك أبداً عن القدر.. المنحة التي تصاحب المحنة. منحة هذه النفحات الايمانية التي أصبحت تلامس شغاف قلبه، وتملأ عليه جنبات وجدانه. إنها حالة استعذاب العذاب. أصبح عامر، الآن، وهو في هذا الكرب الشديد، يشعر بأنه روح

بلا جسد، يتسامى إلى أعلى بسهولة، ولا شيء يشده إلى الأرض، وثقلة الجسد، كانت في السابق معاني نظرية، أما الآن فهي معان يتذوقها بكل مشاعره، يشمّ أريجها، ويتفيأ ظلالها، ويسعد بطمأنينتها. أفاق عامر من تسبيحاته التي أخذته بعيداً عن المحققين، وقد أحاطوا به جميعاً، إحاطة أفعى سامة بفريستها.. أخذوا يتناوشونه من كل جانب، كمجموعة ذئاب أنشبت أنيابها في حمل وديع.. خلعوا أقنعتهم المزيفة، وكل ما تقنعوا به الأيام السالفة.. وراحت ألسنتهم تغرف من أعماقهم الحاقدة.. بدأ الحفلة الصاخبة «شلومو»..

– اسمع أنا أتكلم معك.. أنظر إليّ.. ضع عينك في عيني.. لا يوجد أمامك مفر.. القصة باتت واضحة.. وفرّ على روحك وتكلم،هيا تكلم..

ومن الجهة المقابلة يتابع «داني»:

– لم كل هذا العذاب يا رجل؟! أتتصور أنك بطل زمانك؟! مرّ علينا أبطال كثيرون من أمثالك.. هنا يبطل مفعول الأبطال.. أنظر هنا، أنا أتكلم معك، يكفيك بطولة ما قدمت. ستقول لقد صمدت صمود الأبطال.. لم أتفوه بكلمة واحدة، إلاّ بعد أن أحضروا أصحابي واعترفوا أمامي..

وتابع «شلومو»:

– اسمع يا عامر، أنظر إليّ هنا، بإمكاننا أن نتفق معك اتفاق رجال «جنتلمان».. نعدك أن لا نكتب شيئاً في إفادتك.. ستخرج بورقة بيضاء وبإمكانك أن تقول بملء فيك أنا لم أعترف.

«الأغبياء يريدون لي أن أصبح كذاباً.. أكذب على نفسي، وعلى إخواني، وكأن الصراع بيني وبينهم على مكانتي أمام الناس، وأن صمودي من أجل أن أحافظ على هذه المكانة.. صحيح أن هذا له اعتباره، ولكن أين هذا من مكانتي عند الله؟ كيف بي، وأنا منتصر على أعداء الله؟ أخرج

صابراً محتسباً وهازماً لهؤلاء الشياطين؟! إنه صراع إرادات: من هو الأكثر صبراً، والأطول نَفَساً، والأشد جلداً؛ أنا أم أنتم؟ أعداء الله أم أولياء الله؟! كيف بك يا عامر وقد خرجت من هذا المعمعان منهزماً مدحوراً..؟ أتصورك جيداً، وكأن الشيطان قد ركب ظهرك، وراح يضحك حتى بدت نواجذه، وبلغت قهقهته عنان السماء، إنه صراع إرادات: إرادتي أم إرادتهم مجتمعة.. يا له من ميزان قوى مختل!! نبيل يقول إنه اعترف.. هل اعترف عن كل شيء أم عن شيء يسير؟! هذا ما يلزمني معرفته.. هل أسألهم؟ لا يا عامر، إذا سألتهم سيضعون أيديهم على نقطة ضعف، ثم سيعزفون عليها معزوفاتهم البشعة..».

كان عامر يصول ويجول بإنكاره، يواجه موجات الصخب التي ضربوها حوله، دون كلل أو ملل، بما يملك من إيمانيات ودعائم، ترفع من درجة صموده. كلما لاحت له خواطر ضعف، وقفت لها سيوفه، التي كان قد أعدها، جيداً، لهذه المواجهة، كانت هذه السيوف عبارة عن قوة إيمانه، وثقته بالمولى خير ناصر، وخير حافظ، خير مُقوٍّ وداعم، وكانت لهذه السيوف لمعات تبدد جحافل ظلماتهم.. يرفع في سماء قلبه آية من المثبتات، مثل قوله تعالى: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين)، ثم يرتوي من مدادها مقتضيات النصر، وهي الصبر والثبات في المحنة. لقد درس هذه الآيات المنتشرة في سور القرآن الكريم، ووقف عندها طويلاً في حبسته المديدة، والآن جاء دور اختبار النفس التي تحمل هذه الآيات على محك العمل والابتلاء..

وكانت هناك سيوف أخرى يستعين بها، وهي خبرته التي يتزود بها في هذا المجال، حتى لا تمر عليه خدعهم الخبيثة.. هذه هي سيوفه إذاً في هذه المعركة.. إرادة قوية تضرب جذورها في تربة إيمانه الخصبة،

وخبرة نيرة تنقدح في عقله، وتقف بالمرصاد لكل حيلهم الماكرة.. مرت ثلاث ساعات، وهم يتجاذبونه بمطارق كلماتهم الجوفاء. أربع زوايا سوداء تحيط به من كل جانب. أية زنزانة بشرية هذه التي أحاطوه بها؟ وبصره يتنقل من واحد لآخر.. كل متكلم منهم يبدأ كلامه: أنا أتكلم معك، أنظر إليّ، هنا. الأعصاب أصبحت متوترة. أذناه نافرتان. الليل في آخره، والبرد شديد. وقد عمدوا إلى عدم تشغيل المكيف الساخن.. أرادوا حسم هذه الجولة في آخر يوم من أيام أسبوعهم الذي وضعوه فيه في مركز اهتمامهم المجرم. الفجر بات على الأبواب، وعامر لا ينطق بشيء.. النوم يهاجم جفونه بعنف، وهو يتذكر أيام الاعتكافات التي كان شيخهم يدربهم فيها على السهر. ما أن يطلع الفجر إلاّ وللنوم لذة عجيبة، يسارعون لدفن أنفسهم فيها. أما هنا فإنه نهاية اليوم الخامس ليلاً ونهاراً.. أفاق عامر على صوت «إيلان» وهو يعرض عرضاً خطيراً: اسمع يا عامر. لا نريد منك اعترافات كاملة.. نحن نعترف بصمودك البطولي وروح شجاعتك العالية.. ولكن فكر في الاتجاه الآخر، قليلاً، هل تتوقع أننا كطاقم متفرغ لك، نقبل بالعودة إلى المسؤولين عنا، وأيدينا فارغة.. إنهم يلحّون علينا ويريدون القصة كاملة.. هل نقدم لهم اعترافات أصحابك ثم نقول: أما ثالثهم فإننا لم نستطع أخذ أية كلمة منه..؟ سيقال لنا: ماذا كنتم تفعلون؟ هل كنتم في نزهة سياحية مع هذا الرجل؟ اسمع يا عامر مني هذا العرض المغري.. نحن نرفع أيدينا عنك، وفي الوقت نفسه نقنع المسؤولين عنا بشيء ما. نريد منك أي شيء.. أي اعتراف مهما كان بسيطاً، ونعدك أن نغلق الملفات على هذا الاعتراف.. ما رأيك؟! ألسنا كريمين معك إلى أبعد الحدود؟.

«يا لها من فكرة جهنمية.. ولكن يا عامر نبيل اعترف.. ضع أحسن

الاحتمالات، وهو أن تعترف بأبسط الأشياء.. تنظيم مثلا.. لماذا لا تعترف باعتراف بسيط كهذا، ثم تصر عليه وتموت دونه.. فكرة رائعة». وتعالت دقات النوم على جنبات الروح. خفق قلبه بشدة على وقع هذه النداءات الضعيفة وبحركة عقلية بطيئة.

«ماذا .. لو.. قلت.. لهم إنك منظم لاحدى التنظيمات.. تنظيم تأخذ عليها.. كم يا عامر؟ من سنة إلى ثلاث سنوات.. ولكنها ستكون الحبة التي ينفرط بعدها عقد المسبحة.. إنه كبيرهم، يعدك بإغلاق الملف.. ومتى كنت تصدق وعودهم؟! بداية الأسبوع القادم يأتيك طاقم جديد، ويبدأ من حيث انتهوا معك».

انتفضت مشاعر عامر من جديد على هذه الصورة المخيفة.. إنها الكلمة الأولى: أخطر كلمة يا عامر.. تذكر ايماءة «برصيص» للشيطان. إيماءة وليست كلمة أودت به إلى نار جهنم.. إن نار الاعتراف في صدري ستكون من نار جهنم.

– ماذا قلت يا عامر؟!

وآخر من الجهة المقابلة:

– أتضيع هذه الفرصة؟

وأمام صمته تعلو صيحاتهم:

– هل جننت؟! ما هذا الغباء؟!

– ساعد نفسك حتى نساعدك.

ومع نقرات خفيفة على الرأس، شعر بها عامر كأنها مرزبة تضرب بكل ثقلها..

– هيا.. تكلم. لا تدفعنا لإخراج جنوننا أمام جنونك. أنت ماذا تحسب نفسك؟ تواضع خير لك.. انزل عن برج كبريائك.. هيا تكلم خير لك..

- يا عامر. «مجنون يلقي حجر في بير مئة عاقل لا يخرجوه».

وكان عامر ينظر إليهم، وكأنهم كلاب مسعورة فتحت نباحها عليه. وكان أحياناً يراهم بوجوههم التي أخذ فيها الحقد مواقعه، وكأنهم زعماء بني قريظة والنضير وقينقاع، عندما كانوا يجتمعون للتآمر على الدعوة الاسلامية..

- أي شيء يا عامر تنقذ به نفسك.

- إن بقيت على عنادك، سنعرف كيف ننتقم منك..

- أمامك جحيم طويل.. بإمكاننا تمديدك شهراً، وشهراً، وشهراً، ستة شهور وسنة.. ما زلنا معك في بداية الطريق.

«واستمروا يراوحون مكانهم من التوسل والرجاء، إلى الترهيب والتهديد، يضربون على تحقيق شيء مهما كان، يسدون به رمقهم، وشدة نهمهم للوصول إلى أي اعتراف من هذا الرجل العنيد.. لقد هالهم هذا الصمود، يصل إلى الذهول وحافة الهلوسة، ومع هذا يبقى متماسكاً، ولا تفلت منه كلمة بما يريدون. و«شلومو» في قرارة نفسه يزداد اعجاباً بهذا الرجل، ويفسّر لنفسه سرّ هذا الصمود:

«إنه رجل يحمل فكراً، يحمل إيماناً.. صموده بنيان قوي، لا يقف في الهواء، أو على أمواج البحر، وإنما على أساسات راسخة وأرض صلبة. ستكون هزيمتنا الساحقة عندما يكثر أمثال هؤلاء.. هؤلاء الذين يناضلون بهذا الإيمان الراسخ كالجبال. كل إغراءاتنا له باءت بالفشل. إنه يفهم جيداً مع من يتعامل؟ يعرف اليهود حق المعرفة. يعرف أن مواثيقنا سرعان ما ننقضها قبل أن يجفّ حبرها.. هذا الذي يعده به «إيلان» هل سيكون صادقاً بوعده؟ إنه الكذب الفاضح. لا نتورع عن أية وسيلة مهما كانت قبيحة.. ولكن إلى متى سيبقى هذا البنيان صامداً.. أنا

متأكد، حسب خبراتي في الدوافع الإنسانية، في علم النفس، أن انهيار أمثال هذا الرجل صعب للغاية. بدلنا الأساليب العنيفة بهذا الضغط النفسي اللئيم، دون أية فائدة تُذكر، ما العمل مع هذا الصنف من الرجال؟»

نظر «إيلان» إلى ساعته، وقال بصخب:

–الساعة السادسة صباحاً يا عامر. لم يبق أمامنا بعد هذا السهر الطويل سوى ساعة، أو نجدد معك أسبوعاً آخر على هذا المنوال.. لن تنام أبدا إلاّ باعتراف ما.. مهما كان صغيراً.. أمامك ساعة واحدة، الكرة في ملعبك، القرار بيدك.. دقائق معدودة ثم تذهب للنوم المريح أو أسبوع آخر قابل للتجديد..

– الساعة السادسة. عليّ أن أصلي الصبح.

قال عامر:

– لك ذلك، ولكن أعطنا كلمة، كلمة واحدة.

– أتساومني على الصلاة؟!

– لا أبداً. ولكن توفير الوقت..

– أي وقت..؟

– ألا تريد أن تنام؟!

– أنام؟ من؟! أنا أنام؟

ودخل عامر في دائرة من الهلوسة، استطاب معها وقوفه اللذيذ على حافة النوم، مع إبقائه لعصب حساس موصول بحزم مع عضلات لسانه.

– ألا تريد أن تنهي القصة فنخلصك من وجوهنا؟

– القصة.. أية قصة؟ قصة غرام؟

- هيا، تكلم.. حدثنا عن هذه القصة.
- كان يا مكان، في قديم الزمان، أية قصة تريدون؟!
هبّ «إيلان» واقفاً، ركل الكرسي الذي يجلس عليه عامر، ضرب الطاولة بيديه، ثم راح يسب ويلعن، وقام عنه الثلاثة الآخرون، وكأنهم كانوا حول سراب بقيعة حسبوا أن فيه ماء، فما باءوا إلاّ بالعطش، الذي يقتل أفئدتهم وأرواحهم.. خرجوا جميعا إلاّ «شلومو». وقف «إيلان».. على الباب وقال:
- لنا معك جولات، وجولات، استعد لها جيداً..
ثم قال «شلومو» الذي أرهقه السهر:
- قم يا عامر إلى صلاتك.
وضع النظارة الظلماء على عيني عامر ثم سار به في دهاليزهم العمياء.. من باب الى آخر، حتى سمع صوت الأنف الثقيل يدق إسفينه في باب زنزانة ضيقة، وانصرف بعد أن صفق الشرطي الباب خلفه بغلظة متعمدة..
مرة أخرى وجد عامر نفسه في صحبة زنزانة، ولكنها هذه المرة، كانت نصف الأولى، لا يزيد طولها عن متر ونصف المتر، عرضها كذلك، وهي شديدة الظلمة لا يرى فيها بصيص نور، جدرانها خشنة، ولا يوجد فيها دورة مياه كتلك، وإنما وجد فيها سطلين يعبران عن نفسيهما جيداً؛ واحد للشرب وآخر للبول..إذاً كانت الزنزانة الأولى مضافة، خمس نجوم بالنسبة لهذه...
ومع كل هذا، فقد كان فرح عامر بها عظيماً.. ساعة نوم كانت تساوي الدنيا وما فيها، فما بالك بغرفة نوم، ستمضي فيها ساعات طوال، دون أن ينبح عليك أحد.. توجه عامر لزميليه الجديدين!!.. لم يكن فيهما أي

نقطة ماء.. طرق الباب.. جاء الشاويش..فتح الطاقة المزروعة في أعلى الباب، كأنها عين قد أصابها المرض. تسلل الضوء فاستطاع أن يرى مكونات هذه الشقة بشكل جيد..!

– ماذا تريد؟!

– أريد ماءً..

– مفيش ميّ.

– أريد الماء للصلاة..

– «شيكت» اخرس..

بأعلى صوته.

ثم طرق العين الشامتة بأقوى ما عنده محدثاً دوياً عالياً، تمكنت الزنزانة من خنقه بسرعة.. لم يكن هناك أية أصوات... الكل في سبات عميق.. هزّ عامر رأسه وقال: إنها عطلة آخر الأسبوع: الجمعة والسبت وتراهم الآن يسبتون.. تيمم ووقف للصلاة.

– أين القبلة؟ (أينما تولوا فثمّ وجه الله).

وشرع في صلاة سريعة قبل أن يسقط من شدة الإعياء.. لم يدرِ كم صلى.. ووجد نفسه يهوي راكعاً وساجداً.. سلم، وأمال جسده ذات اليمين، ثم غرق في بحر لجّيّ من الأحلام، تطارده فيها أشباحهم بكل ضراوة وعنف.

– لا يدري كم مضى من الوقت قبل أن يجد أفعى ضخمة، تتلمظ، ترسل فحيحها، وتتأهب للانقضاض عليه.. حاول الفرار إلاّ إنه وجد السبل أمامه مغلقة.. انقضت عليه، والتحم معها، وتمكن من قبض رقبتها من مفصل الرأس، بكلتا يديه. لم تستطع هي، أن تغرس أنيابها في جسده، ولم يقو هو على خنق أنفاسها بين يديه... ضاعف من

ضغطه بكل ما أوتي من قوة، هو يضغط، وهي تتلوى، وتضرب بذيلها الأرض.. ومن شدة الضغط، وهول المعركة أفاق من نومه، وقد تفصد عرقاً وامتلأ صدره خوفاً.. تفل يساراً، ثم تيمم، وراح يحمد الله على أن نجّاه من هذه المعركة المرعبة، وقال في نفسه:

-انهم الأفعى، والحرب بيننا ما زالت سجالاً: سأخنق كل أساليبهم الخبيثة بإذن الله: (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

الزنزانة مرة أخرى
(في الظلمات)

مرة أخرى وجد عامر نفسه أمام سؤاله القديم: كيف تمكنوا من الوصول إلينا، واعتقالنا الثلاثة معاً؟ وطرق أبوابه سؤال آخر: هل اعترف نبيل فعلاً، وعن ماذا؟! وجد نفسه في هذا المكان الضيق مقرّنا بأصفاد هذه الأسئلة المميزة.. كانت تضغط على أنفاس عقله، أكثر من ضغط هذه الزنزانة التي شحّت بها نفوسهم أن يوسعوها قليلاً: زنزانة رقم «٧». كان يخيل إليه، أحياناً، أن الأكسجين قد نفد منها.. تتحرك حساسية كان يعاني منها في صدره.. يعلو، يهبط، من ثقل الهواء الداخل والخارج وكأنه في سباق «ماراثوني».. يسمع صفير صدره، ويخشى أن تتحول هذه الحساسية إلى أزمة دائمة، ويجد نفسه، أحياناً، فريسة جولة من السعال الذي يجدّد آلام صدره.. ورائحة السطل الهمام تضرب في أعماق رأسه.. طرق الباب، ونادى. جاء الشاويش، فتح النافذة، وسأل

من خلال تقاسيم وجهه العابسة:

– من فضلك أريد حبتي «أكمول»..

قهقه بأعلى صوته وقال:

– هل تحسب نفسك في فندق؟! «مفيش أكمول».

– من حقي أن تحضر لي أكمول أو «الحوفيش» الممرض.

– مفيش حوفيش، حضّر حالك للحمام.

بعد قليل فُتح باب الحمام.. لولا أنه مرّ في هذه التجربة، سابقاً، لتعجب من قبر كهذا، يُصنع له باب، يُفتح ويُطلب من ساكنه أن يستحم. خرج مسرعاً، حيث قاده الشرطي، ودفعه إلى حمام، فيه صالون و«دش» ماء فاتر، ودورة مياه، فاضت نجاستها، بسخاء.. ماذا يفعل؟! أيقف في هذا الماء الذي يطفو على سطحه البراز والنجاسات؟! تذكر أن رائحته، أيضاً، تستدعي الحمام، وقد تكون هذه الإجازة كي يرتاح المحققون من رائحته.. وأكثر ما يؤذيه، بسبب ما لديه من حساسية في صدره، هذه الرائحة العفنة.. بعد تردد قصير، قطعه صوت الشرطي، وهو ينذره، ويعطيه وقتاً مقداره خمس دقائق.. سيقضي بها حاجته ويستحم.. خلع ملابسه، فلم يجد أي مكان يعلقها عليه سوى ماسورة الدش. قضى حاجته، حيث كان يعاني من أزمة تصريف، منذ فترة طويلة فتيسّر أمرها بسرعة.. فتح «الدش» على مصراعيه، وأدار الصابونة ذات الرائحة، التي لم يستطع أن يحدد؛ هل هي طيبة أم لا.. تذكر.. لا يوجد منشفة.. هذه كماليات لا حاجة لها هنا.. والغيار، أيضاً، من الكماليات.. فتح عليه الشرطي الباب، وعوى:

– هيا لقد انتهى الوقت.. أسرع.

– هذا في الدين حرام، لا يجوز أن تنظر إلى عورتي.

– أسكت «ما فيش هنا حرام»..

كاد يهجم عليه، لكنه أمسك نفسه. عاد إلى زنزانته المظلمة.. استطاع أن يرى، عندما فتح الباب لإدخاله، وجبة فطور «دسمة».. بيضة، قطعتي خبز عليهما لحسة زبدة، ولحسة مربى.. أكلها بنهم، ورجع إلى سؤاله الذي ما زال رابضا في أعماق صدره: ما الذي أدى إلى اعتقالنا؟ ونقله هذا السؤال إلى سؤال آخر.. هل اعترف أصحابي؟ وراح يقيّم الماضي؛ من الذي خرج منتصراً أنا أم هم؟ وماذا بعد هذه الجولة.. كيف ثبتني الله؟! كانت معنوياتي الإيمانية عالية، وكان لها الدور الحاسم في الثبات أمام هجماتهم المتكررة.. إذاً، ما عليّ الآن إلاّ أن أتزود للجولة القادمة.. إنها جولات جهنمية تصمد فيها إرادات الرجال.. عليك أن تتزود الآن بما يشحذ إيمانك. إنه ذكر الله وأي ذكر؟

الذكر الذي يؤكد لي صحبة مولاي.. معية الله بكل ما تحمل من عون، وقوة، وهداية، ورشد، واعتصام بحبل الله المتين. تذكر دائماً (وهو معكم أينما كنتم)، (وهو الذي يكلؤكم بالليل والنهار)، (إن وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين)، يا سلام عليك يا عامر.. واحدة من هذه كفيلة بوضع قلبك على كنز لا ينضب.. (وهو يتولى الصالحين) من يتولاك؟! هو الله العلي القدير.. الله أكبر.. منهم ومن كل مكرهم، ومن كل حيلهم الخبيثة.. الله أكبر.. كرّرها يا عامر ألف مرة، حتى تجد عظمة الله في قلبك، فتصّاغر تلك الجراثيم التي ستواجهها غداً..

وراح عامر في خلوة مع ربه يتنقل في رياض الذكر.. الله أكبر.. لا إله إلاّ الله.. حسبنا الله ونعم الوكيل.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. ثم راح في دعاء طويل، ختمه بـ «يا الله، يا الله، يا الله»، ولم

ينس الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلّم التي استحضر فيها المواقف الشجاعة في سيرته صلى الله عليه وسلم. وجاءه الغداء والعشاء، وراح في نومة طويلة، منتعش الروح، وراضي البال، وأحلام أكثر وضوحاً وصفاءً.. رأى في المنام زوجته وولده الرضيع. كانت عيناها مشرقتين تلمعان بنور الصبر مع مسحة حزن تكسو وجهها، ويلوح في ثناياها الدعاء الحار بالثبات والفرج. وكان ولده يضحك، وتبدو أسنانه الجديدة، كأنها طيور مغردة في أعشاشها الجميلة.. ورأى أمه في مشهد آخر تقف دامعة على بوابة السجن.

أفاق آخر الليل من أحلامه، ثم سافر بعيداً، عبر أحلام اليقظة التي تجلت فيها أمانيه.. كيف سيتعهد ولده، ويسهر على تنشئته أروع تنشئة؟ كيف سيعطي ولده ما فقده أبوه؟! حتى لا يمر في الحرمان، الذي مرّ فيه في خضم حياته، فالاحتلال ما زال موجوداً..

رحل الاحتلال من الباب، وعاد من الشباك والباب، في آن واحد. يا له من احتلال بغيض، يأبى أن يحلّ عنّا. وبعد جملة مسبات على الاحتلال ومن تسبب فيه، قام عامر ليصلي الصبح ويستعد للجولة القادمة. دار دولاب اليوم الجديد من خلال طرقات الصحون التي يوزع فيها الفطور.. التهم عامر فطوره بسرعة، وهو يترقب فتح الباب، لبدء حفلتهم الطويلة التي ستستمر حتماً أسبوعاً كاملاً.. ماذا تراهم سيقولون؟! هل يعودون لأسلوب العنف الجسدي القديم؟ عاد إلى نفسه، وقال: دعك من هذه الأسئلة التي لا نهاية لها.. المهم؛ كن مع الله ولا تبالِ، وما ينزل من السماء تتلقاه الأرض، أنا الأرض التي أقبر فيها كل مكرهم (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال).

ساعة، ساعتان، ومضى نهار، ودخل الليل، فعاد إلى نفسه؛ «إذن،

عادوا إلى اللعبة الأولى. أعادوا صف حجارة الشطرنج لبدء اللعبة من جديد. إهمال في الزنزانة؟! الله أعلم كم من الأيام؟ إنها رحلتك في عالم الروح، ولا نجاة لك من كابوس هذه الزنزانة اللئيم، إلاّ في عالم الذي يشرح الصدر، ويُنزل الطمأنينة في القلب.

«أنسيت يا عامر، سرعان ما ينسى الانسان، بالأمس كانت هذه الزنزانة نعمة؟ كنت تبحث عن مكان للنوم.. أي مكان؟ تتدلل وتشكو من الأنفاس الخانقة لهذا القبر الذي يسمونه زنزانة».

ومضى أسبوع آخر، وعامر بين موجات وجولات!! بين موجات أسئلته المحيرة، وجولات الذكر التي تطفئ نارها التي تكاد تحرق صدره.. وأتى يوم الخميس بصباحه المشرق.. تدحرجت الصخرة، قليلا، عن صدره . أطلّ عليه رأس «شلومو» صاحب النكات البديعة! برقة متناهية وضع على عينيه النظارة الظلماء، بعد أن سلم عليه.. سحبه من يده، برفق، وسار به في دهاليزهم. أجلسه في أحد المكاتب، بعد أن قيّد يديه إلى الأمام، كالعادة، ثم استأذن منه، وانصرف، لأول مرة يتركونه وحيداً في هذا المكان.. الوقت يسير بطئياً.. عواء محقق يعلو ويصل إلى مسامعه.. إنه صوت «إيلان»:

– ألقِ بسمعك جيداً يا عامر؟

لماذا ألقي بسمعي، ألا ترى أنهم يقصدون شيئاً، من جعلي هنا لأتسمع أصواتهم.. ماذا أسمع؟! يا إلهي إنه صوت فتاة. استمع جيداً لهذه الفظاعة.

– اعترفت أنك كنت تساعدين هذه المجموعة العسكرية..؟

صوت «إيلان» ثم صوت الفتاة.

– نعم.. إنها مساعدة في أعمال الإنتفاضة، ولا يوجد لي أية علاقة

بأعمالهم العسكرية.

– أنت تكذبين.

– أنا لا أكذب.

– أنت تقولين نصف الحقيقة.. ما هو النصف الآخر؟

– قلت لكم ما عندي..

وبصوت عال يملأ مسامع عامر:

– أتدرين ماذا سنفعل معك إن لم تقولي كل ما عندك؟ أتنسين أنك بنت وقد أصبحت بين أيدينا..؟ بإمكاننا أن نفعل ما نشاء. نحن نذكرك، فقط.. (والذكرى تنفع المؤمنين).

«الوغد الحقير يهدد البنت بهتك عرضها.. سافل منحط.. أيجرؤ على فعل شيء من هذا القبيل.. أنا أشك في هذا، ولكنهم يهود يحملون بين جوانحهم كل ما يخطر، وما لا يخطر، على قلب البشر.. ولكن لماذا أتوا بي إلى هنا لأسمع هذا الكلام؟! ماذا لو كانت أختك أو زوجتك هذه الفتاة يا عامر؟!»

فجأة فتح الباب على عامر.. صوت «إيلان» يسأل بالعبرية:

– من أتى بهذا إلى هنا؟

فرد عليه «شلومو»:

– أنا.. سآتيه حالاً. أعد له بعض الأوراق.

وبصوت منخفض غاضب معنّف، قال:

– هذا عمل غير مقبول. كيف تتركه وحده في المكتب.. ألا تخاف أن يسمع ما يحدث في المكاتب المجاورة؟

«يا لها من لعبة بين الإثنين.. العبوا غيرها يا أولاد الأبالسة».

ترك «إيلان» خلف الباب، ودخل. نزع عن عيني عامر النظارة. سلم

وجلس قبالته مرحّباً:

– أهلاً وسهلاً.. أين كنت يا رجل؟ ما زلت مصراً على نكران الشمس؟

– أنا لا أنكر الشمس.

بشيء من التحدي:

– أراك غاضباً.. أم أنك مستعد لجولة عناد جديدة؟!

– أنا لست غاضباً.. اسمع يا عامر، تركناك في الزنزانة لعدة أيام، حتى ترتاح، وتعود إلى عقلك. تقيّم الأوضاع، فتنزل إلى أرض الواقع، بعيداً عن غرور المثاليات الزائفة.. أنت رجل عاقل وحكيم.. تقيّم الأمور بشكل جيد.. قل لي الآن.. ماذا قال لك عقلك الواسع؟ هل تريد أن تساعد نفسك وتنقذها مما هي فيه؟! ماذا قلت؟!

– قلت؛ لا إله إلاّ الله.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

أراد أن يصفعه منذ البداية:

– إذاً فأنت مصرّ على كبريائك؟

ثم تابع بصوت أشد:

– ونحن نعرف كيف نكسر هذا الكبرياء.. أتريد أن تعرف كيف؟ سنعتقل زوجتك وأختك وأمك.. أتحسب أن المخابرات الإسرائيلية تستسلم بسهولة؟!

«إذا عرف السبب بطل العجب.. لهذا جاءوا بك؛ كي تسمع تحقيقيهم مع تلك الفتاة، وقد تكون مجرد تمثيلية يمثلونها عليك يا عامر، بل هو من المؤكد.. هكذا، بحسك الأمني، ضع علامة استفهام كبيرة على نَفَس من أنفاسهم. أنفاسهم، كلها، شريرة يا عامر، أحمدك ربي وأستعين بك».

– إذن، فأنت لا تصدقني.. تعال معي، قم.

وسحبه بعد أن وضع ظلامهم على عينيه.. سار به ثم توقف.. فتح باباً.. نزع النظارة، ثم أغلق الباب بسرعة.. ماذا رأى عامر في هذا البرهة؟ زوجته، وبين يديها طفله، تجلس قبالة «شلومو»، الذي بدوره جلس كأنه يحقق معها. صاح عامر مسمعاً زوجته:

– لا تخافي أنا بخير..

سحبوه بسرعة، دون أن يستطيع إضافة أية كلمة أخرى. وعلم عامر بأن زوجته جاءت بناء على طلب من المخابرات، وليس اعتقالاً، بدليل أن ابنها بين يديها. لو كان اعتقالاً لما سمحوا لها باصطحاب ابننا الصغير.. وحتى لو كان اعتقالا، فإنّ عامرا على ثقة ويقين، بأنّ هذا الأمر لا يضر؛ كون زوجته لا تعلم شيئاً من أسراره تلك.. أما عن قضية هتك أعراض النساء، فإنهم لا يجرؤون على هذا، خاصة، في مجال عملهم الرسمي في أروقة المخابرات هذه. ولخص استنتاجاته قائلاً في نفسه:

«إنها تجربة من الضروري أن تمر بها زوجتي، ولو لساعات أو أيام محدودة..»

– هل تريد مفاجأة أخرى يا عامر؟!

سأل «إيلان» بأعصاب باردة، ونظرات تلمع بنشوة القوة والاقتدار.

أجاب عامر بثقة عالية:

– أتحسب هذه مفاجأة.. أنا أتوقع منكم أي شيء.. ما الذي يمنعكم؟! أخلاقكم؟! دينكم؟!

– طالما أنك تعلم هذا، فلماذا لا تتقي شرنا؟!

– وهل أنا أبحث عن شرّكم؟!

– أنت تعرف؛ «الطريق الذي يأتيك منه الريح، سدّه واستريح»، هذا مثل عربي من عندكم.

«فعلاً ريح السموم هي الاعتراف لكم»..
– عليك يا عامر أن تغلق عليهم هذا الطريق.
– ما لك تصمت الآن؟ هيا تكلم قبل أن نريك ما بإمكاننا أن نفعل.. هل تحب أن ترى وتسمع..لا، لا..
– ماذا أرى وأسمع؟ أكمل حديثك.
– أنت تعلم ماذا، من غير أن أكمل..
– أتفعلون كما فعل الصرب في البوسنة.. أم كما فعل الألمان بكم؟
وجن جنون «إيلان» عند سماعه الكلمة الأخيرة:
– أنت مجنون.. غير معقول أن أسمع هذا من صرصور مثلك.. سأسلخ جلدك عن عظمك.. سأردك إلى زوجتك وأمك جلداً بلا عظم..
– «شلومو»، «شلومو» أطلب تمديد اعتقال لزوجته وأمه وأخته، ارفع طلب إذن خاص باستخدام العنف الجسدي مع هذا الوغد.. هيا.. تحرك.. أنا وإياك والزمن طويل، سأكتب تقريرك السري للمحكمة بيدي هذه، وحتى لو لم تعترف، فهذا لن يعني شيئاً سوى تعبك وشقاك، لإشباع غرورك والأوهام التي ترتع فيها..
تدخل «شلومو» قائلاً:
– أنا أرى أن تعطيه فرصة أخيرة للتفكير..
– عليه أن يقرّر..
ردّ عامر بقوة:
– أقرر ماذا؟!
تابع «شلومو» بصوت هادئ فيه رقة مصطنعة:
– يا رجل قرر ما فيه مصلحتك ومصلحة زوجتك وأختك وأمك.. ما زالت أمامك فرصة ذهبية.. اعترف بأي شيء.. بماذا اشتركت مع

غيرك؟! ماذا كان دورك؟ اعترف عن دور بسيط وتنتهي المشكلة..
- هل أعترف عن شيء لم أفعله؟!
- المطلوب الآن، أن تخلص روحك من هذا العذاب، وروح أعزّ الناس على قلبك.. يا رجل (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)، أليست هذه من دينكم؟

«أيها الأغبياء: تلوون أعناق النصوص، أصبح من الضروري الآن، أن لا أعترف.. الاعتراف الآن، هو الهلاك بعينه.. إنه الجحيم الذي لا أطيق..»

- ماذا قلت يا عامر؟
- قلت: لا إله إلاّ الله..

«الكلمة التي يقتل بها معنوياتهم».

استشاط «إيلان» غضباً وصرخ:

- خذه عن وجهي.. خذه بعيداً عني، حتى تفوح رائحته، ويخر صريعاً نتيجة أوهامه الزائفة.. أنا لا أريد الآن، أن يغتنم أية فرصة.. سوف يأتيني راكعاً على ركبتيه من أجل الاعتراف، فلا تتعجل الأمور يا «شلومو».
- أرى أن نعطيه عدة ساعات في الزنزانة، كي يعيد حساباته..
- حسناً.. المهم؛ الويل له من شرّ اقترب. لتحاذر غضبنا أيها المغرور. أنت لم تر شيئاً بعد..

* * *

ومضى يوم جمعة وسبت آخران، في الزنزانة الظلماء نفسها، ومع حمام آخر بالطبع. جلى أدرانه، وخفف قليلاً، من رائحة العفونة التي تلقاها من تلك الجدران العبقة بالروائح الكريهة.. لقد أصبح مثقل

الكاهل، وأيامه تمر ببطء شديد، وكأن دولابها قد أصابه الصدأ، وأوشكت حركته أن تتوقف.. الساعات جامدة، جمود هذه الزنزانة، لا يتحرك فيها إلاّ هذا الإنسان، الذي تناوشته مخالب أحقادهم، من كل جانب. الظلام مزعج أيما إزعاج.. ليل طويل، لا يتخلله أي نهار كضيف ثقيل يأبى الرحيل. والروائح لا تتوقف عن بثّ شكواها، وندب أحوالها.. يحاول عامر الهروب بامتطاء بساط الذكر الذي يسافر بروحه بعيداً، إلاّ أن الرائحة والظلام، والأسئلة الملحة المحيرة، تأبى إلاّ أن تعيده إلى هذا الواقع الأليم.. يرتل مما يحفظ من سور القرآن.. يتدبر معانيها بعمق، لم يكن ليتسنى له، فيما خلا من الأيام، خاصة، تلك التي يذكر فيها الصبر والبلاء وثواب المحسنين. ويتوقف أحياناً على محطات شاعرية، يتصور فيها أحزان أمه، وأشواق زوجته، ولهفته لاحتضان ولده، فتزيده الذكرى اصراراً على الصمود والثبات. هذا الباب لا يُفتح، ولا تتسرب منه بعض صفائح الضوء، إلاّ حينما تطل الوجبات برأسها صباحاً وظهراً ومساءً.. برهة سريعة يرى فيها الأرض التي يقف عليها، والجدران التي تطبق عليه أنفاسه، ثم تعود لتختفي بسرعة، لتطويه في خفائها الدامس.

يوم السبت صباحاً، اليوم الواحد والعشرون للاعتقال. سمع عامر صوتاً مألوفاً لديه.. إنه صوت إبراهيم في الزنزانة المجاورة، يطلب من الشرطي الخروج للحمام. وجد عامر في ذلك فرصة ذهبية بعد هذا الغياب الطويل للحديث مع إبراهيم. سؤال واحد سريع: هل اعترفت؟ وعن ماذا؟ وتكمن روعة هذه القصة أن اليوم هو يوم السبت. يوم إجازة المحققين. وراح عامر يمعن النظر في هذه الفرصة..

«هل تضمن أنهم لا يتنصتون علينا، رغم أنه يوم سبتهم..»

تذكر قصة تحايلهم على صيد الحيتان يوم السبت، وتذكر حملات الاعتقال التي كانوا يستغلون فيها يوم السبت. الشباب يسبتون، وهم لا يسبتون.

«ولكني بأشد الحاجة لمعرفة جواب هذا السؤال، مجرد سؤالك يا عامر، يثبت لهم أن هناك شيئاً مما يبحثون عنه. ثم إن وضعه في الزنزانة المجاورة؛ هل هو من قبيل الصدفة؟ إني أرجح بكل تأكيد أن هناك جهاز تسجيل، ليسجل حواري مع إبراهيم، خاصة، يوم السبت عندما تخف حركتهم، تصبح الأجواء أفضل أمناً.. ولكنك يا عامر في أشد الحاجة لمعرفة هذه المعلومة، التي يترتب عليها أشياء كثيرة.. على رسلك. قف هنا ودقق. أمعن النظر. ما هي الفائدة من هذا الفضول؟ هل تفكر في الاعتراف في حال اعترافهم؟ إذا أصبحت تفكر بهذا في أعماق عقلك، فقد بدأت رحلة التقهقر.. هذا مستحيل.. ما زلت، بفضل الله علي، في قمة التصميم، ولن أنزل عن جبل أحد.. لن أنزل من قمة النصر إلى قاع الهزيمة.. إذاً، فالنتيجة هو أنه لا داعي لاجراء أي اتصال مع إبراهيم. أما إذا اتصل هو في حالة معرفته أن مكاني بجواره، فما علي إلاّ أن أرد عليه بكلمات سريعة، يفهم منها قصة التنصت هذه. أذكر أنني حذرتهم من هذا الموضوع، وشرحته لهم في رحلة الإعداد التي سبقت العمل. ولكن في حالة الاتصال بعد هذا الانقطاع الطويل.. الحاجة الملحة لمعرفة حقيقة مواقفنا، محاولة استغلال فرصة السبت هذه. كل هذا قد يدفع للتهور وفلتان اللسان. سترك يا رب».

سمع عامر صوت أقدام خفيفة، مع صوت قرقعة المفاتيح، تسير خلف هذه الأقدام. كان إبراهيم عائداً من الحمام، وخلفه الشرطي، وعندما حاذى إبراهيم نافذة عامر هتف:

- كيف حالك يا عامر..؟ شد حيلك وتوكل على الله.

رد عامر بسرعة محملاً كلماته رسالة واضحة كان قد أعدها جيداً:

- من هذا؟ أنا لا أعرف هذا الصوت؟

- يا عامر أنا إبراهيم.

- إبراهيم من؟

ثم سمع صوت الشرطي، وهو يزجر إبراهيم، ويدفعه داخل زنزانته.

بعد ساعة، وفي هدأة النوم سمع عامر صوت إبراهيم ينشده من خلال ترانيم، وكأنه يغني مع نفسه:

- كيف الحال يا يا يا عامر، أوف، أوف يابا. أنا محسوبك صامد بن صامد ولا يهمك..

«المجنون يحسب أن هذه اللغة لا يفهمونها.. ولكن يا فرحتي: «صامد بن صامد» إذاً إبراهيم لم يعترف. حمداً لله ورد عليه بنفس الأسلوب:

- لسانك حصانك.. إحنا ناس غلابا، ويا ما في السجن مظاليم..

وبضربات ثقيلة، وكأنها قصف مدفعي، ضرب الشرطي باب زنزانتي وباب زنزانته بحذائه الصخري.. ارتعدت الزنزانة، ومادت بي قبل أن تبتلع هذا الصوت المجنون، ثم أخذ يهدد ويتوعد.

أدار عامر رحى أفكاره..

«لو كان هناك تنصت لتركنا نسترسل في الحديث.. لماذا قطعه علينا بهذه السرعة؟ إنه التمويه، وكذلك فإن الممنوع مرغوب. يدفعنا بهذا إلى الإصرار على التواصل، وتبادل الحديث، فلتحذر يا عامر، ولتغلق هذا الباب جيدا.»

ولاذ بالصمت، بعد أن فهم كل منهما رسالة الآخر، ووعاها جيدا..

* * *

يوم الأحد عصراً، حدث أمر فوق كل التوقعات.. لم يسحبوا عامر لافتتاح حفلة جديدة.. طابت لهم استضافته الطويلة، في صحبة هذا المربع المظلم. ولكن الذي حدث اليوم قطع عليه روتينه الطويل، وكانت المفاجأة المذهلة. الأنف الغليظ يحشر نفسه في قفل الباب.. الضوء يندفع للداخل يسطع على وجه نبيل. إنه نبيل بلحمه ودمه.. دفعوه إلى الداخل، وأعادوا غلق فم الزنزانة..

وقع الاثنان في عناق حار، لم يستطع عامر التخفيف من حدته.. رأى كل منهما نفسه في الآخر. بدا نبيل لعامر منهكاً، شاحباً.. علّمت الأيام السابقة على وجهه، وكأنها سنين طويلة من سني الشيخوخة. كسى الصفار الباهت وجهه الأبيض، وبدت عليه علامات الذل والانكسار.. مال رأسه قليلاً باتجاه صدره، وكانت عيناه لا تقوى على إمعان النظر في هذا الظلام الصاخب.

وبدى عامر لنبيل وقد أصابه التعب والارهاق، إلاّ أن عينيه ما زالتا تلمع فيها الإرادة القوية، والتصميم الحاد.. سمرة وجهه غابت في الظلام.. كان مرفوع الرأس، يحدج نبيل بكل ما أوتي من قوة، وكأنه يحاول قراءة ما يجول في صدره.. وكانت راحة يده التي تمسك بكتف نبيل بكل حب واشفاق. بدأ عامر الحديث كي يسوقه إلى حيث يريد، بعيداً عما يريده المتنصتون.. كان يعلم تمام العلم، بأن كل حرف يقال في هذا المربع المظلم، يبث بشكل حي ومباشر، في آذان المحققين، وهو بالتأكيد مسجل حتى تُضبط أدلة الإدانة. قال عامر:

– كيف حال صحتك يا نبيل؟

– الحمد لله تمام، لولا...

– بلاء سريع، إن شاء الله، وتعود إلى وظيفتك وعملك. على فكرة،

حسب ما أذكر، أنك طالب ولست موظفاً.. والله الواحد ينسى حاله هذه الأيام.. ماذا عن دراستك في الجامعة؟ ماذا تدرس وأين وصلت؟!

«فهم نبيل أن عامر يحاول الهروب إلى مواضيع أخرى، غير التي يريدها المحققون».

– يا سلام.. ذكرتني بالجامعة.. أين نحن هنا من الحياة الجامعية.. دراسة ولعب ولهو.. حياة مفعمة بالحركة والنشاط.

– والحب، أيضاً!

– والحب يا سيدي، في جعبتي قصص كثيرة.

– هات ما عندك حتى نزجي وقتنا الثقيل، ونبدد ما شاب صدورنا من الملل والكمد..

– ألا تريد أن أجيبك على سؤالك الأول عن تخصصي، أم ان فتح باب الحب يُنسي المرء كل شيء؟

– هات كل ما عندك، فكلي آذان صاغية لك يا ولد..

– أنا تخصص إدارة أعمال ومحاسبة، في السنة الثالثة.

– حسنا وماذا في جعبتك من قصص الجامعة، في المسلسلات المصرية تكثر قصص العلاقات العاطفية بين الطلبة في الجامعات..

كان «إيلان» وطاقم التحقيق يسمعون هذا الحوار في مكتبهم، من خلال سماعة «الإنتركم» بصحبة مسجل يسجل الكلام بكل حذافيره. وكانت صدورهم تتلظى غضباً كلما ولجا موضوعاً من المواضيع البعيدة عن الهدف. «إيلان» يسب ويلعن هذه القوانين التي تربط على أيديهم، وتمنعهم من إطلاقها على أجساد هذه الأفاعي السامة.. و«داني» يصب جام لعناته على عامر.. هذا الرجل الشيطان، الذي يعرف كيف يواجه ملائكة الرحمة بكل حنكة وذكاء.. يدور معهم حيث داروا ثم يقلب

مراكب كبيرهم بكل سهولة ويسر.. يا له من ثعلب ماكر.
مضت ساعات، من غير أن يقتربوا من موضوع من التي يريدون.. وهذا نبيل، أيضاً، يتجاوب مع أستاذه بكل دقة وخبث.. باء تنصتهم بالفشل، واستطاع عامر أن يجتاز مع صاحبه هذا الاختبار.. كتم أنفاس فضوله، واقنع نفسه بأن عدم معرفته باعتراف صاحبه أفضل، فالصمود هو وحده الذي يشرق في أفقه، سواء كان صاحباه اعترفا أم لم يعترفا، فالأمر سيان بالنسبة للموقف الذي عليه أن يقفه ويثبت عليه. أصبحت ساعات الزنزانة الظلماء تخف السير، وكأنها قد تخففت من أوزارها. لقاء طويل، والأنس يرفرف فوق رأسيهما. طوّف بهم حنينهم إلى الجامعة، وحياتها المتعة، ثم راح عامر يتحدث عن طفله.. يسهب في الحديث عن ضحكه ولعبه.. ويتلذذ في ذكر نوادره.. يتقن إخراج ذكرياته ببطء شديد، وروية ممتعة، كمتعة بروز سن الطفل الأول في مقدمة الركب.. لقد استطاع عامر أن يسجل حفلة شاعرية، زوّد فيها المحققين بمعان إنسانية عالية رفيعة مرهفة.. كانت بمثابة لوحة فنية تألقت فيها المشاعر الإنسانية، وكانت قادرة على تحريك من لديه مثقال ذرة من هذه المشاعر، إلاّ أن هؤلاء لا يشعرون.. قفارهم قاحلة لا تنزل سماؤها مطراً، ولا تنبت أرضها كلأً..
بعد الظهر، فتح قطاع الطرق الباب، وقطعوا على الصديقين خلوتهما المتعة. سحبوا نبيلاً، وبقي عامر يعدّ نجوم لياليه وحيداً.. ولو كان لهذا الليل نجوم، لوجد ما يتسلى به ويؤنس وحشته.. لا توجد أية علامة تدله على أن لهذه الزنزانة سقفاً، وكأن الأرض قد انشقت فاحتوته بين أحشائها، بعد أن أطبقت عليه بكل دقة وإحكام.. لماذا جعلوا فيها هذا الباب وهذه الطاقة الشامتة؟! باب للعذاب، أو للمكر والخديعة، أو

للمقيمات تقيم أوده، لتديم لهم رحلة العذاب مع هذا الإنسان المعذب. ساعات وأيام تجر ذيولها ببطء شديد.. ثقيلة كالجبال، وشاقة كقطع الصخر، وأليمة كمن دهمته أزمة حادة، استقرت في أعماق صدره.. أصبح عامر يقارن بين محاورة هذه الزنزانة ومحاورة هؤلاء الأنكاد.. يثور ضجره أحياناً، ويتمنى الانفكاك عن هذه الظلمة، ولو كان ذلك بمقابلة ظلمة وجوه رجال المخابرات.. كان يترقب، والترقب والانتظار أمران شاقان على النفس.. يحاول جاهدا تفويض الأمر لله، ونسيان هذا المحيط المطبق على أنفاسه.. يتحلل قليلاً من أوزار هذا الضغط إذا رفع أشرعة إبحاره في عالم الصلاة، والذكر والقرآن.. تخفف، وتشرح الصدر، وتنزل السكينة. ولكن الضغط شديد، ويأبى أن يرتحل عنه. يصبر ويصابر.. يدعّم عزائم معنوياته، بما يعلم من آيات مثبّتة.. يحلق في أجوائها ويضع قلبه في رحابها، إلاّ أن محاولات زحزحته كانت شديدة.. تتنازعه الظلمات، وتتقاسمه مع نور الايمانيات.. ويبقى في حالة ترقب شديد لما ستسفر عنه الأيام ومصايد الشيطان.

الصفقة المغرية

نهاية الأسبوع الرابع أتته شياطين الرحمة!!

بكل رقة وحنان، طلبوا منه أن يضيفهم في مكاتبهم، لساعات معدودة. لبّى دعوتهم، وكأنه يملك أن لا يجيبهم! فجأة، وجد نفسه يسافر في ظلمات ذلك المربع إلى هذا النور الباهر.. ما أطول هذا البون الشاسع وما أعظم نعمة النور.. كان ينظر إلى الإنارة الساطعة، بغبطة وحبور، ملأتا كيانه كله.. وينظر إلى وجوههم في الوقت نفسه، كقطع ظلامية هتكت حرمة هذه الأنوار البهية..

تركوه وجهاً لوجه أمام «شلومو» صاحب الوجه الضاحك!! يتذاكى ويحاول كسوة وجهه بابتسامة نبيلة، إلاّ أن رائحة نتنة تفوح، فتمسح النبل، وتترك الخبث فاضحًا على هذا الوجه.. بهدوء مصطنع، وابتسامة عريضة بدأ كلامه:

– أهلاً وسهلاً سيد عامر.. كيف الحال؟

– الحمد لله!
– صدقني أني حزين على أحوالك.. آه.. ماذا نعمل؟! ما في اليد حيلة.
أنا شخصياً لا أدري كيف أستطيع أن أساعدك..
«اللعين يذرف دموع التماسيح وهو جزء لا يتجزأ من هذه الكتلة البشرية الحاقدة».
– أنا أعلم أنك كموظف في هذه المؤسسة، لا تستطيع المساعدة بشيء..
– ماذا أعمل، فأنا عبد مأمور.
مط عنقه ورفع رأسه كأفعى كوبرا تتأهب للانقضاض على فريستها.
– عندي فكرة يا عامر.. وجدتها.. إنها خير وسيلة لإثبات الحقيقة.. وسيلة إلكترونية لا غبار عليها.. هل سمعت بجهاز الكشف عن الكذب؟ هم يقولون أن عليك اعترافات، وأنت تقول: هذا كلام غير صحيح.. إذاً، نحّكم هذا الجهاز «والمية تكذب الغطاس».. فكرة بسيطة، ولكنها رائعة..
رد عامر بطريقة إنكارية متجهمة:
– أنا واثق من نفسي، لست بحاجة لأي جهاز حتى أثبت صدقي..
– أنت رجل حكيم يا عامر، والحكيم يزن الأمور بميزان الحكمة، ماذا لو أثبت لهم ما تقول بالدليل العلمي القاطع؟! انتبه، هذا في حالة موافقتهم على اقتراحي.. قد لا يوافقون لأنهم يقولون إنهم متأكدون من اعترافات أصحابك..
«أقسم أن سم هذه الأفعى الملساء أسوأ من تلك الأفاعي الرقطاء»
– هذه فرصة ذهبية يا عامر.. كلنا نُعرض عليه، قبل أن يتم قبولنا للوظيفة التي نعمل فيها.. وكل فترة، أيضاً، يتم عرضنا عليه، للتأكد من عدم خيانة الوظيفة، واحترام أصول المهنة.

«هه.. وها أنتم تعملون بدقة متناهية، وأمانة مهنية عالية!!»

– رجال الدولة الكبار يا عامر، يعرضون على هذا الجهاز.. ضباط كبار، وجنرالات، ووزراء، ورجال قضاء.. أنت رجل مثقف، وتعلم هذه الأمور.. أتذكر الضجة الإعلامية التي قامت، ولم تقعد، عندما رفض المستشار القضائي للحكومة «إلياكيم روبنشتاين» أن يُعرض على هذا الجهاز، عندما تم اختياره لهذا المنصب الرفيع..؟ أتذكر هذه الحادثة وماذا كانت نتيجتها؟!

– لا.. لا أذكر.

– النتيجة أنه لم يتقلد المنصب إلاّ بعد أن اجتاز هذا الاختبار. من مزايا دولة «إسرائيل» أنها دولة قانون؛ الكبير يخضع للقانون قبل الصغير.. إنها «ماكنة» إلكترونية، لا مجال للغش والخداع فيها. إنها تقوم على أساس علمي متطور.. تقوم بمهمتها خير قيام، ولا تحابي أحداً.. تكشف ما يجول في الصدور، بكل دقة وأمانة.. إنها فرصة ذهبية يا عامر، فما رأيك؟! هذا إن وافقوا على اقتراحي.

– وافقوا أم لم يوافقوا، فأنا لا أعرّض مصداقيتي لأجهزتكم.

– معقول؟! هل يرفض هذه الفرصة رجل مثلك يا عامر.. أنا لا أكاد أصدق.

سدد عامر نظرات ثاقبة كأنها السهام التي تحمل الموت إلى عيني «شلومو» وقال بحدة حاسمة:

– أجبني على هذا السؤال.. إذا أردت أن تشتري سيارة، فهل تقبل بأن يفحصها البائع لك؟! لا بد وأن تأخذها للفحص عند طرف محايد، ليس له مصلحة عند البائع ولا عند المشتري..

– هذا كلام صحيح.

– وأنا أوافق على أن أعرض نفسي على جهاز الكذب هذا، لأثبت لكم صدقي، ولكن عند طرف محايد، وليس عندكم.
– مئة بالمئة، وأنا موافق.. هل تتصور أننا نحن الذين نقوم بالفحص؟ إنه خبير طبي، وهو حكم نزيه لا يخضع للمخابرات مطلقاً..
– خبير طبي؟! وما أدراني.. ألأنه يلبس معطفاً أبيض؟ ما أدراني أنه لا يعمل معكم؟ بل بالتأكيد يعمل معكم، فقد سمعت في حبستي الطويلة عشرات القصص من الشباب الذين عرضتموهم على هذا الجهاز.. كلهم، دون استثناء، كان خبيركم يقول لهم: إن هناك كذباً في سؤال كذا.. إذهب وخلص أمرك مع المحقق.. بصراحة، إنها لعبة مكشوفة..
– لقد رحت بعيداً في شكك يا عامر.. هذا جهاز إلكتروني حسّاس وغير خاضع لمزاج أحد.. ألست واثقاً من نفسك؟!
– كل الثقة.. خذني إلى جهاز تشرف عليه جهة محايدة.
– ومن أين آتي لك بهذه الجهة؟
– أنت حرّ.. قلت أنك ترفض عرض سيارتك للفحص، إلاّ على جهة محايدة، أتقبل عرض نفسك على جهة غير محايدة؟
– يا عامر، صدقني إني أشفق عليك.. ثق بي يا عامر.
«أصدقك كثيراً أيها الشيطان الأسود، كما صدق «برصيص» الشيطان الأبيض، عندما جاءه بصورة عابد محتال!!»
– ألا تريد أن تنهي التحقيق.. إلى متى؟!
– إلى أن تثبت لكم براءتي.
– يا عامر، اخرج من هذه الآمال الكاذبة.. قلت لك إن عليك اعترافات دامغة.
تحركت يد الباب وولج «إيلان».. تكلم مع «شلومو» بالعبرية، ثم قال:

– ومن قال له إننا نوافق على عرضه على هذا الجهاز؟ نحن متأكدون من تورطه دون شهادة الجهاز.. ما الداعي لهذا سيد «شلومو»؟!

– إنها مبادرة شخصية مني.. (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي). أليست هذه من القرآن؟!

رد «إيلان» بنبرة استفزازية:

– أنا أتحداك يا «شلومو». إنه يخاف من أن يفضحه الجهاز، ويظهر كذبه بكل وضوح..

رد شلومو:

– أنا أقبل التحدي، ولكن عليه هو أن يقبل التحدي.

– وأنا أقبل التحدي.

قال عامر.

– إذاً اتفقنا..

رد «إيلان» فرحا

– ولكن الفحص عند جهة محايدة.

وكأنك سكبت ماء مثلجاً فوق رؤوسهم.. وتبادلت عيونهم النظرات السامة.. ثم رماه «إيلان» بنظرات أكثر سماً وكأنها الموت بعينه.

– لم تعدل رأسك الزنزانة.. ولد عنيد.. يظهر أننا سنستضيفك عندنا أشهراً طويلة.. على الرحب والسعة، البيت بيتك، تمديد وراء تمديد، إلى أن تتعفن في الزنازين.

خرج «إيلان»، وبقي «شلومو» يرغي حول نفس القصة. عامر أصرّ على موقفه. يرد على تحديهم بتحدّ مضاد، ولكن عند حَكَم نزيه، أو جهة محايدة، وأنّى لهم هذه الجهة؟!

* * *

في اليوم الثلاثين، سحب الزبانية عامراً من زنزانته الظلماء، وضعوا في يديه ورجليه القيود، ثم اقتادوه خارج مسالخ التحقيق «الحضارية».. سار معه شرطيان إلى بناية مجاورة. كانت رحلة ممتعة، إذ إن عامراً لأول مرة يسير في الهواء الطلق، بعد قصة التحقيق معه تحت الشمس. عبّ ملء صدره من الهواء النظيف، وجعل يجدده المرة تلو الأخرى.. ما أجمل هواء رب العالمين، بعيداً عن تلويثات البشر. هناك، وراء تلك الجدران الصماء، يلوثون كل شيء. يسمع المرء، ويرى كل ما هو قبيح.. جدران كقطع العذاب لا تفقه إلاّ جملة واحدة: خنق أنفاس البشر. الشمس تفيض بدفئها، وتجود بضوئها على كل الكائنات، ما عدا تلك البقع الصغيرة، التي بنوها لتعذيب بني الإنسان. وصلوا به إلى المكان المقصود. ولج باباً عريضاً، فإذا به أمام قاعة محكمة. ساقوه إلى قفص الاتهام. مجموعة مجندين ومجندات ينتشرون في القاعة وعلى بوابتها.. وكانت منصة عالية، اتخذت لها موقعاً في نهاية القاعة، وكأنها خشبة مسرح، تستعد لعرض مسرحي. لم يكن هناك سوى ممثل واحد، بلباس عسكري، قالوا عنه، إنه سيادة القاضي.. وكان هناك مجندة من ماضغات العلكة، تناجي بأصابعها لوحة حاسوب يقف قبالتها.. مع مدّع عام عسكري، لا يُرى عليه إلاّ أثر الإجرام.. سِحَن متعددة، تشترك مع سحن القردة، سوى أن القردة تلمع عيونها بالبراءة، أما هذه فتقدح بالشرر.

فتح المدعي العام ملفاً، وقرأ اسم عامر، وبعض الجمل السريعة، ثم وجد شفتي القاضي السوداوين بسواد وجهه، والغليظتين، حسب سُمنة جسده القصير المترهل. وجدهما تقولان بتمديد شهر لمتابعة التحقيق. انتهت المحكمة أسرع من جناح السرعة، ثم عادوا أدراجهم إلى المربع

الأول.. الزنزانة الظلماء..
كان الجو بارداً خارج تلك الجدران، إلاّ أن ضيق الزنزانة، وحنانها الفياض جعل عامراً يشعر بقليل من الدفء.. أرخت برطوبتها حتى ترطب هذا الدفء، فتولدت أجواء قاتلة تأخذ الأنفاس، وتزكم الأنوف. وكانت أيامه تزداد ثقلاً وطولاً، يوماً بعد يوم، رغم أنه كان يلجأ إلى روحانياته، لجوء المضطر المستغيث بمولاه. تتوهج في سماء قلبه معاني الإيمان، وتلمع كما تلمع النجوم في الليالي الظلماء. وكان، كلما اشتدت عليه الغمة، ضاعف من إقباله على الله. يبدأ بـ «لا إله إلاّ الله» حتى يشعر بكامل وجدانه، أنه لا يوجد في هذه الحياة من يخاف منه، أو يرجوه، أو يعتمد عليه، أو يحسب حسابه إلاّ الله. «الله وحده وما سواه باطل»، تربط على قلبه، وترفع منسوب إيمانياته. تزيده قوة، وتشد أزر عزائمه، ثم بعد «لا إله إلاّ الله» يسافر، بعيداً، في «حسبنا الله ونعم الوكيل» ويتفكر في المقولة الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين؛ الله ثالثهما»، ويترنم: يا عامر، ما ظنك بواحد؛ الله صاحبه.. الله وليه.. الله حافظه.. الله قريب منه، مجيب له.. الله معه بكل ما تحمل من طلاقة القدرة والرحمة والحكمة.. إلخ.
وتراه أحياناً يحلق عالياً في رحاب محبة الله. هل ترى حبيباً يعذب حبيبه؟ فكيف إذا كان هذا الحبيب هو أرحم الراحمين؟ حقاً، إن «ضرب الحبيب زبيب».. ويتذكر حكمة ابن عطاء «كفاك مخففاً من ألم البلاء، علمك؛ بأن الله هو المبتلي لك». كل هذا، وغيره، مما يطول وصفه. كان عامر يرتع في رياضه الزاهرة، خاصة إذا استشعر معاني التفويض لله والرضى عما كتب له.. «إذا رضوا فلهم الرضى».
رحلات روحية، سرعان ما تقوده إلى استقبال المهالك، بوجه ضاحك

كما قالوا في معاني الرضى والتفويض.
وكانت هذه من النعم الجديدة التي أخذت مشاعره طريقها إليها. أصبحت تتنعم وتتلذذ بها، فتعود من الشدة والكرب والمحنة براحة البال، والفسحة والمنحة.. «إذا فهمت حكمة الله في المنع، عاد عليك المنع عين العطاء». ويحلّق عالياً في سماء قوله تعالى: (وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد).
بعد أربعين يوماً من اشتداد ظلمة الظالمين على أنفاسه، وهذه الزنزانة المطبقة على روحه، تركت في صدره أثراً بليغاً.. أصبحت أنفاسه متلاحقة. اشتدت عليه الحساسية، التي كان يعاني منه، فأنزلت مخاطها من الأنف إلى الصدر، وتحولت إلى أزمة صدرية حادة.. العيون تكاد تحترق، والسعال متواصل، والصدر يرسل صفيره، بكل إصرار. طلب الطبيب عدة مرات، ولا حياة لمن تنادي. وكأنهم شعروا بأن حالته الصحية أصبحت يُرثى لها، وفي تدهور مستمر.. سحبوه إلى حيث النور والدفء والوجوه النكرة.. وجد نفسه، مرة أخرى، في مواجهة خُشب الظلام المسندة. بدأ معه «شلومو» الشفوق! ذلك الذئب الذي يجيد إخفاء أنيابه:
- سلامتك يا عامر.. ارحم نفسك يا رجل.. افتح لي المجال كي أساعدك، وأخرجك مما أنت فيه.. ألا تنظر في حالك؟! حالتك الصحية في تدهور مستمر.. ما هذا الصفير الذي في صدرك؟ ألا تخشى أن يتحول إلى أزمة دائمة؟! أنت في مقتبل العمر يا عامر.. ماذا تكسب إذا خسرت صحتك..؟ إذا خرجت من هنا بعاهة تلازمك طيلة حياتك.
«خير من أن تلازمني الهزيمة طيلة حياتي.. في سبيل الله يهون كل شيء، اللهم اجعل مصيبتنا في دنيانا، ولا تجعلها في ديننا».
- يا رجل اسمع.. هل تتصور أن السجن يغلق أبوابه على أحد؟ قلت

لك سابقاً: هناك افراجات مع عملية السلام.. والحل الدائم على الأبواب.. طيب؛ أسمعت بآخر الأخبار؟ هناك اجتماعات متواصلة في «طابا»، وتصريحات المفاوضين الفلسطينيين تقول؛ بأن الطرفين باتا قريبين جداً من توقيع الاتفاق النهائي.. أولاً وأخيراً، سيوّقع الاتفاق، وستقوم الدولة الفلسطينية، ولن يبقى سجين واحد في السجون، فعلام تضحي بصحتك.. لماذا تصر أن تعود لزوجتك وابنك، وأنت لا تنفع لا في العير ولا في النفير؟

رد عليه بأعصاب باردة:

– وهل رأيك أن ألبس نفسي تهمة كبيرة، من أجل أن أصبح أسيراً محرراً؟

– يا سيدي لا حاجة للتهمة الكبيرة، يكفيك واحدة صغيرة.

– أنت كأنك لا تعرف أين المشكلة؟

– أين؟!

– المشكلة أنه لا يوجد عندي لا صغيرة ولا كبيرة.. قميص أبيض لا تشوبه شائبة، بفضل الله..

ويستمر حوار الطرشان بين «شلومو» وعامر، حتى إذا استيأس منه لوح إلى رفاقه، وأراهم صفر يديه، فيهجمون عليه من كل جانب ويتناوشونه كما فعلوا سابقاً.. يحاولون إرهابه بعوائهم المتواصل دون جدوى.. يجلبون عليه بخيلهم ورَجِلهم، ويشاركونه ليله الطويل، فما ينالهم منه سوى أنهم، في النهاية، يخنسون كما يخنس الشيطان، ويرتد كيدهم إلى نحورهم.. حاروا في أمره، وعقدوا اجتماعاً لرسم مستقبل التحقيق مع هذه الصخرة الصماء.. هكذا أسموه بينهم، قال «إيلان»:

– لقد رفضت المحكمة إعطاءنا إذناً خاصاً بالتعذيب الجسدي، لهذا المخلوق البليد.. ما العمل الآن؟

رد «داني»:

– أنا حسب خبرتي مع هذا الصنف المؤمن من الرجال، لن يزيده العنف الجسدي إلاّ تحدياً وعناداً.. أصلاً لم تقتنع الجهات الرسمية بتغيير أسلوب العنف الجسدي بهذا العنف النفسي، إلاّ لأن هذا الأخير أفضل نجاعة، وأحسن جدوى.

– عموماً هذا التقييم سابق لأوانه.. بعد تجربة، قد نعود إلى الأسلوب القديم إذا ثبت العكس..

قال «إيلان»

– وهل ترجع المحكمة العليا عن قرارها..

– المحكمة تخضع لتقدير المصلحة.

– وتحسين الوجه الحضاري لدولتنا؟!

– لقد أصبح هذا الوجه في خبر كان، خاصة بعد أحداث هذه الإنتفاضة اللعينة.. ألا ترى الجرائم المتبادلة بيننا وبين الفلسطينيين!! ولكن جرائمهم يُنظر لها أنها أعمال فردية، أو أن أبعد حدودها في إطار تنظيم إرهابي.. أما جرائمنا فهي جرائم دولة، ومؤسسة عسكرية.. أتدرك هذا؟!

قال «بيني»:

– عندي اقتراح عملي مع هذا الوغد.. صفقة مغرية يسيل لها لعابه.. وأرى أن يعرضها عليه «شلومو» أبو الصفقات.

– ولكن هذا الرجل صاحب تجربة، قد يطلب توثيقها أمام محام أو في المحكمة.. عندئذ لا يمكننا التنصل منها.

رد «شلومو».

– لا تخف فطرق التحايل كثيرة. اعرض عليه، ولننظر مدى استجابته للموضوع أولا..

– وهو كذلك.

* * *

في اليوم السابع والأربعين، أصبح عامر وصدره ينزف ألماً قاسياً، وكأن جدران هذه الزنزانة قد ربضت على ضلوعه.. الهواء يتثاقل، ويئز في أعماق صدره، وكأنه سكاكين حادة.. ما العمل؟ لقد أصبح في أشد الحاجة إلى علاج.. لا بدّ من أن يراه الطبيب. طلبه، مراراً، في الأيام السالفة، فلم يعطوه آذانهم، وكأن هذا الأمر من الموبقات السبع.. أمام هذا الإهمال المتعمد، اتخذ عامر قراراً استراتيجياً حاسماً.. في الصباح فُتح الباب لإدخال وجبة الفطور.. ردّها عامر وقال:

– لا أريد طعاماً، أريد علاجاً.. أنا مضرب إضراباً مفتوحاً عن الطعام.

«صفق الشرطي الباب بقوة، اهتزت لها أركان الزنزانة ولم يُعقّب»

وبقي عامر طاوياً على جوعه، وعلى ألمه يومه ذاك.. كان ذلك قاسياً للغاية، فقد كانت اللقيمات التي تأتيه تثير ذكريات معدته، وتبقها على اتصال بمصادر الطاقة، رغم شحها ونتافة محتواها.. كانت مبرراً لتسلل بعض طلائع الضوء، التي سرعان ما تنقطع أنفاسها في أعماق هذا الغار.. قطع عامر على نفسه حبائل هذه الوجبات النحيفة، وقرّر أن يضغط أنفاس هذه المحنة على قاعدة «اشتدي أزمة تنفرجي».. ثم صعّد في استغاثاته بالعزيز الجبار، وراح يلحّ في الدعاء، ولأن قدرته على صياغة ما يريده كانت لا تجد حلقاً رطباً، فقد اكتفى بالهمس: يا الله.. يا الله.. يا الله. ويترك لقلبه رسم دعائه، كما يشاء، دون أن يترجمها اللسان.

وكان الشرطي يسمع هذا الهمس، فحسبه أنين الموت والنزاع.. بلّغ المحققين، فأحضروا له الطبيب في الحال.
في أحد مكاتب التحقيق قابل الطبيب. فحص ضغطه، وتنصت على صدره «الكل يريد معرفة ما يجول في هذا الصدر حتى هذا الطبيب!! باهت الوجه، كأنه من رجال بني الأصفر.. مترهل الوجنتين، وعيناه تدوران بلا انتظام.. واضح أنه من الأطباء الروس الذين لفظتهم البطالة، هناك، فجاءوا ليجدوا أرزاقهم هنا..»
قبض على قلمه وشرع في كتابة طويلة.. طال بعامر الانتظار، وهو يكتب.. ملأ ورقتين كبيرتين.. ثم نظر إلى «شلومو» الذي كان يقف فوق رأس عامر، وقال بعبرية ضعيفه يفهمها عامر جيداً:
– هذا بحاجة إلى مشفى.. عنده أزمة حادة خطيرة جداً.. مصدور، الضغط منخفض، ودقات القلب غير منتظمة، يحتاج إلى أوكسجين لصدره وتخطيط للقلب. عدم تناوله للطعام يشكل خطراً جسيماً على حياته. أنا لا أستطيع أن أفعل له هنا أي شيء. لا بد من نقله إلى المشفى، وفوراً.
«اللعين وضعني على فراش الموت، وكأني أعدّ أنفاسي الأخيرة. إنها اللعبة القذرة لهؤلاء الروس الذين يشترونهم بثمن بخس..»
ثم حمل حقيبته وأدوات مكره، وانصرف.. قال «شلومو»:
– سأجهز لك أوراق التحويل إلى المشفى حالاً..
«معقول؟! وأخيراً جاءك الفرج يا عامر..»
بعد قليل سمع عامر تصايحا بين «شلومو» و«إيلان»..
– توصيات الطبيب أن يحول إلى المشفى فوراً..
قال «شلومو».

– ما رأيك أن نحوله إلى فندق خمس نجوم..

ردّ «إيلان».

– سيد «إيلان» نحن نتحمل مسئولية، إن مات بين أيدينا.

– لا تهتم أنا أحمل مسئوليته.

«وكأنهم يستعدون لكتابة شهادة الوفاة. يا أغبياء، معنوياتي، بفضل الله، أقوى من أن تهزها هذه الأراجيف المكشوفة..»

دخل «شلومو» يسب ويلعن:

– جهاز قذر، لعين.. لا يوجد للإنسان عندهم أية قيمة.. تصور يا عامر، يرفضون الأخذ بتوصيات الطبيب، وتحويلك إلى المشفى.. يا له من إجرام..

– ....

التزم عامر الصمت، والتدبر في معالم هذه اللعبة الجديدة..

– هنا يا عامر لا يملك من يقع بين مخالب هؤلاء شيئاً، إلاّ أن يساعد نفسه وإلا راحت عليه.. ها هو وضعك الصحي أصبح خطيراً.. ماذا بعد شهر آخر أو شهرين؟! إنهم بلا قلوب.. لا يرحمون أحداً.. أذكر إحدى القصص المريعة. قصة «عبد الصمد حريزات».. شاب ضعيف البنية.. نحيل الجسد.. يمسكونه من كتفيه، ويهزونه كأنه نخلة بين أيديهم، قلت لهم؛ هذا لن يتحمل الهزّ.. قالوا: لا يريد أن يعترف، ذنبه على جنبه.. تصوّر.. مات بين أيديهم، وبعد لحظات كانوا يتناولون الشاي، ويلوكون بين أسنانهم النكات الماجنة.. جهاز قذر، وبشر بلا قلوب.

«وبعد!! ما المطلوب من هذا الكلام.. هل تريد أنت، أيضا، أن تهز معنويات عامر، كما هزّ أصحابك كتفي عبد الصمد؟! يا حيّ، يا صمد

عليك اتكالي، وبك ملاذي.. يا أرحم الراحمين».
– ما السبيل يا «شلومو» في مساعدة هذا الإنسان..
وكأنه يناجي نفسه:
– اسمع يا عامر، سأقوم بوساطة بينك وبينهم.. هل سمعت بالصفقات التي تعقد في المحاكم..؟ لماذا لا نعمل معك صفقة..؟ وأنا أتعهد لك بالالتزام الكامل بشروطها.. حل وسط بينك وبينهم.. ما هو رأيك؟!
– ....
«اتفاقيات سلام على أعلى مستوى، وبشهادات دول عظمى، ولا تلتزمون بها، أتلتزمون بصفقة مع العبد الفقير عامر؟، يا لي من أحمق إن صدقتكم..»
«ما هي شروطك يا عامر..؟ مثلاً: اطلاق سراحك.. جميل؟ وما هي شروطهم..؟ الاعتراف الكامل..؟ أنت تصرّ على عدم الاعتراف بأي شيء، وهم يصرون على عدم إطلاق سراحك، وتلبيسك بمؤبد تقضي به كل حياتك في السجن، مواقف متطرفة من كلا الطرفين».
– ألا توجد حلول وسط؟
– حلول وسط؟ أهي اتفاقيات «أوسلو» جديد..
– قلت لك سابقاً أنا ضد «أوسلو».. بإمكانك أن تقول إنها اتفاقيات الحل الدائم.
– وكيف؟
– الأمر، كما يقولون، يحتاج إلى تنازلات أليمة من كلا الطرفين.
– وما هي هذه التنازلات؟!
– لنفكر معاً.. أنا، لغاية الآن، لم يتبلور في ذهني شيء..
– أنا، بالنسبة لي، لا يوجد عندي ما أتنازل عنه.

– حسناً. دعنا نفكر بحل يُرضي الطرفين.. فكر معي يا عامر.
كان عامر يترقب نتيجة هذا المشهد المسرحي، الذي تم إعداده بعناية غير جيدة، تصور الناس الذين تنطلي عليهم هذه الحيل، كجمهور مسرحية متخلفة، نالت إعجابهم نظراً لعدم توفر المزاج المسرحي، والحس الفني عندهم.. كان هذا المشهد الذي يُعرض على عامر يبدو، في نظره، في غاية التخلف، وفي غاية الملل.. بعد برهة من الصمت، وامعان النظر من قبل «شلومو»، وكأنه يستغيث بإبداعات أفكاره النيّرة قال:
– صفقة رائعة.. تتعهد المخابرات بإطلاق سراحك فوراً، على أن تقضي فترة ثلاث سنوات خارج البلاد، ويحق لك العودة بعدها..
ردّ عامر وهو في غاية الاستغراب:
– ثلاث سنوات خارج وطني؟
– يحق لك العودة بعدها يا عامر، وهذا تنازل هائل منهم، بدل أن تحمل المؤبد، مثل السلام عليكم. إنه تنازل أليم منهم، تصور المخابرات، وهي تطلق سراح من تلطخت يديه بدم اليهود . ألا تعتبر هذا أنه تساهل لم يسبق له مثيل..؟ هذا تنازلهم يا عامر، فماذا عن تنازلك أنت؟!
– أيوجد بعد هذا طلبات أخرى .
– إنه دورك يا عامر، لتمد يدك لليد التي امتدت إليك.. بقي تنازل بسيط من قبلك، حتى تتم الصفقة، ونقرأ الفاتحة. كل هدف المخابرات، يا عامر، أن تمنع المزيد من سفك الدماء البريئة. نصيبك من هذه الصفقة أن تعترف بما لديك من معلومات، فالصفقة باختصار: اعترافك مقابل إطلاق سراحك.. ثلاث سنوات في الأردن، ثم تعود بعد أن يطوي النسيان هذا الملف..
– حديثك هذا غريب.

– لا تكمل يا عامر.. هذا عرض لصفقة مغرية، تستحق منك التفكير بها جيداً.. بإمكانك تأجيل ردك لعدة ساعات، حتى تزن الأمور جيداً، ولا تضيع هذه الفرصة.. أنا سأتركك هنا، وحدك، مع كأس شاي ساخن. سأذهب لإقناع طاقم التحقيق بها. أنا واثق من إقناعهم.. المهم أنت لا تتردد في الأمر.. اعزم وتوكل..

– اسمع كلامي..

– يا رجل لا تتسرع.. في العجلة الندامة، وفي التأني السلامة.. فكر في الموضوع على مهلك.. سأعود إليك..

توجه إلى الباب خارجاً فاتبعه عامر بكلمات سريعة:

– هذا كلام فارغ.. أنا لا يوجد عندي ما أعترف به.. أنا بريء، ويجب أن يطلق سراحي فوراً..

بقي عامر وحده يغرف، من جعبة ذكرياته، قصص بعض الإخوة الذين غررت بهم المخابرات من خلال هذه الصفقات الوهمية.. يظن أحدهم بأنه أذكى من رجال المخابرات.. يسيل لعابه على العرض المغري في الصفقة، وتحت ضغوط معاناة التحقيق النفسية، يجد نفسه يتفق معهم، معتمداً على كلمة رجال، وكأن حكمتهم لا تسقط الأرض، ويتغافل عن قوله تعالى: (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم). بتغافل عن أن الصراع هنا خدعة، ولا يوجد شرف لهذه المهنة القذرة التي يمارسون شعائرها الملتوية، بكل خبث ودهاء..

المشكلة أن هذه الأفلام محروقة وقديمة لدى عامر.. خبرها جيداً من خلال متابعته لهذه الشؤون بكل تفاصيلها..

«للأسف أغلب الناس لا يتابعون تفاصيل ما يجري في كواليس التحقيق». قال ذلك عامر في نفسه، بشيء من الأسى والمرارة..

«تراهم يقعون، كما تقع الفراشات في النار، ظنا منها، لعمى بصيرتها، بأنّ هذا نور، فيكون ناراً تحترق فيه..»

ويذكر عامر قصة سعيد، الذي ذهب معهم أبعد من هذا، ولم يكن بذلك سعيد الحظ، بل كان على أتعس ما يكون الإنسان.. قال في نفسه، بعد أن استجاب لصفقتهم المغرية؛ ولم لا أضحك عليهم حتى إذا أطلقوا سراحي كنت في حلٍ من أمري..؟ يريد أن يتذاكى عليهم، فوقع على رأسه، (كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث).. لقد كانت الصفقة: أن يتعامل معهم مقابل إطلاق سراحه.. التزم بالشق الأول من الصفقة، ولكنهم لم يطلقوا سراحه، إلاّ بعد أن ورّطوه في خدمات متتابعة، وهو يأمل منهم، أن يفوا بما تعهّدوا به، (وأقسموا عليه جهد أيمانهم)، بعد كل خدمة يضعها بين أيديهم.. لم يتركوه، إلاّ بعد أن فاحت رائحته.. لفظوه إلى السجن ليقضي كامل حكمه.. إنها ليست قصة سعيد، وحسب، وإنما قصة كثيرين من السعداء، الذين أبوا إلاّ أن يكونوا أشقياء..

رجع «شلومو» مع «إيلان»، وهما يرسمان على وجهيهما علامات استبشار اصطناعية.. قال «شلومو» جذلا:

– أبشر يا عامر.. لقد أقنعتهم لك.. وافقوا على الصفقة.. مبروك يا عامر، ضع يدك هنا.

– أعوذ بالله.. أية صفقة هذه التي تتحدث عنها..؟

رد عليه «إيلان».

– مجنون أنت.. لقد جننت جنوناً لم أر مثله في حياتي.. أيوجد إنسان على سطح الأرض، يرفض مثل هذه الصفقة..؟

تابع «شلومو»:

– انقذ نفسك مما أنت فيه، يا عامر.. حرام عليك، صحتك، شبابك، ابنك بحاجة إليك.. ساعات، وتكون حراً طليقاً.. مجرد معلومات، ستنال بها حريتك.. اعتق نفسك يا عامر، من هذا العذاب.. كما ترى، فإن العذاب هنا لا تطيقه الجبال الراسيات.. ماذا سيحدث لك إن استمر وضعك هكذا شهراً آخر؟!

وانضم إليهم الآخران «داني» و«بيني»، حتى يشكلوا الزوايا الأربع للزنزانة البشرية.. وراحوا، كالعادة، بتسديد سهام كلامهم الفارغ.. هذا يرغّب، وذاك يهدد، وعيونهم تتناوش عينيه، بكل شراسة.. في المرات السابقة، كان عامر يعاني من الإرهاق العصبي وقلة النوم، أما الآن فهو يعاني من آلام صدره، ووخزاتها الحادة.. إذاً فهم يستغلون حالة الضعف، ليقوموا بهجومهم الكاسح هذا، لعل الإرادة تتعثر، فينزلق اللسان بالكلمة الأولى، ثم بعد ذلك تهون الأمور بالنسبة لهم.. المهم أن ينزلق اللسان بأي شيء، بعد ذلك تجدهم يعرفون كيف يستخرج النفط، وكيف ينفرط عقد المسبحة.

ساعتان، ثلاث، أربع، لا يدري عامر كم مرّ من الوقت، وهو بين براثن كلماتهم النجسة.. فضّها في النهاية بكلمات غاضبة، حاسمة، انطلقت كقذائف قصف ثقيلة، دكت حصونهم من أساساتها:

– أنا لا أدري لغاية الآن ماذا تريدون.. صدقوني.. إنكم مخطئون في العنوان.. بالتأكيد هناك شخص آخر، عنده هذا الذي تسألون عنه.. إنكم تنقبون عن النفط في أرض لا يعرف باطنها النفط.

ردّ «إيلان» بحدة عنيفة، وبأعلى ما عنده من صوت..

– ولكننا طاقم متخصص، يعرف، تماماً، أين يوجد النفط.. ويعرف، تماماً، كيف يستخرج هذا النفط.

علّق «شلومو»، هازئاً، ومحاولاً التخفيف من هذا التوتر:
– نفطك عجيب يا عامر.. لن نشتري إلاّ إذا حدثتنا عنه. الصفقة يا عامر، توشك أن تفلت من يديك..
– أما زلت تحلم بشيء اسمه صفقة..؟
رد عامر..
انفضّت المساومات دون أية نتيجة.. ردّ كيدهم إلى نحورهم، وعاد عامر، مع صدره الذي يفيض ألما، خفف عنه قليلاً، وهو يستذكر وجوههم النكرة، وهي تتخزبل، وتعود متقهقرة مدحورة.. لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الإرادة الثابتة، والتي لم يفلحوا في فتح أي مسلك لهم في ربوعها الصخرية الشامخة..»
أعادوه إلى زنزانة عادية، غير تلك الظلماء، التي قضى فيها واحداً وأربعين يوماً، لم يعرف ليلها من نهارها.. كان لا بد لهم من وضعه في أجواء أفضل، ليس حرصاً على صدره، وتدهور وضعه الصحي، وإنما حرصاً على مواصلة التحقيق إلى نهاية الطريق.. يلوّنون أساليبهم ويعددون من الأجواء النفسية التي يضعون فيها فريستهم، حتى ينتهزوا ساعة التوتر النفسي، للانقضاض السريع المفاجئ، بغية إلقاء القبض على الاعتراف المطلوب، أو أي جزء منه.
وجد عامر نفسه، مرة أخرى، في شقة واسعة.. شقة فخمة، بالنسبة للمربع المظلم الذي اقتات فيه الظلام والظلمات.. هذه يتمطى فيها، ويزيد شبران، أو ثلاثة، عن طول قامته.. بحبوبة رائعة.. وهناك المكان الذي يصرّف فيه كبت أمعائه.. هذه وحدها نعمة عظيمة لا تقدر بثمن.. أما عن التهوية والمنافذ، فهي تشترك مع صاحبتها بنفس الطراز.. موضة، أو تقليعة، أبدتها عقولهم الحاقدة.. شفّاط، كأن به مروحة تدور

على حين غرة، وتتوقف كلما شعروا أن هناك من الهواء ما يكفي لاستبقاء الحياة، كي يتابعوا ألاعيبهم الخبيثة.. وهناك فتحة أخرى قد تكون لضخ الهواء بدل الذي تسحبه جارتها.. أما عن الإنارة، فإنها رائعة، وقد تخلصت من الشح الذي يكاد يقتل نور العيون، وهو في مهده.. حمد عامر الله على هذه النعم الجليلة، وراح يفكر فيما عرضوه عليه أخيراً.. إنهم لا يملون من أساليبهم الخبيثة.. كلما فشلوا في أحدها جربوا غيره.. والقاعدة التي كانت في صدر عامر، أن هذا الصدر الحرّ، هو مقبرة الأسرار.. فأسراره قد أصبحت تراباً، أو رقيماً، قد ضلّ في الأرض، فأنى، ومن يحيي العظام وهي رميم، إلاّ يوم القيامة، عند من بيده أسرار الخلائق كلّها.. كان عامر يضع في ذهنه، بأن الموت ونزع الروح عن الجسد، أهون من نزع كلمة من صدره، باتت كالشوك في العهن المنفوش.

قال عامر في نفسه بعد أن شكر الله على هذه النعمة: «علي أن أستعد للجولة القادمة.. إياك أن تغفل عن التقوية الدائمة للإرادة. لأن الصراع هو صراع إرادات.. وصراع أدمغة، أيضاً.. صراع الأدمغة، والوعي بأساليبهم بها في حبستي الأولى، رغم أنني كنت أستعد للنمط القديم: العنف الجسدي، أما هذا العنف النفسي، فيبدو لي بأنه أسهل بكثير، بعون الله، رغم أنه يحتاج للشق الآخر، وهو الشحن المتواصل للإرادة القوية.. إن أقوى ما يدعّم هذه الإرادة هو التفاعل القوي، مع العناية المثلى، في الحياة الإيمانية.. فإذا كان الله غايتنا، فإن الذكر الذي يلهب القلب، مع هذه الغاية.. قرباً، ومصاحبة، وحباً، ومعية كاملة بكل ما تحمل هذه الغاية من شمائل.. إنه تواصل مستمر بين القوة المحدودة والقوة المطلقة.. بين النفس، فقيرة الهداية والرشد، وبين مطلق الهداية

والرشد.. بين القسوة وشدة الظرف، وبين الرحمة المطلقة.. بين الفقير الذليل، وبين الغني العزيز.. وهكذا، فإنك تجد تواصلاً لا ينضب بين المعاني والمشاعر، التي تجعل الإرادة كالطود العظيم، تصارع إرادتهم بكل صبر وجلد وتوكل وصمود..»

«إذاً إلى رياض الذكر يا عامر.. ولكن ماذا عن الإضراب الذي دخل يومه الثالث؟»

وعامر يعلم أن أصعب أيام الإضراب هي أيامه الأولى، وأنه، وهو في الزنازين، يضيف معاناة إلى معاناته.. ولكن التراجع صعب، بعد أن بلّغهم بذلك.. لقد أعلن الإضراب من أجل العلاج.. أحضروا له الطبيب، فمارس عليه شعوذته، دون أن يصرف له شيئاً من الدواء.. فليستمر الإضراب إذاً حتى يحضروا له العلاج..

بعد ظهر ذلك اليوم أتته وجبة الغذاء، تسعى أمامها رائحتها النافذة.. فتح النافذة «شلومو»، العدو الضاحك، سأل:

– مرحباً يا عامر.. أما زلت مصرا على اضرابك؟

– حتى آخذ حقي في العلاج.. تعلم أن العلاج حق للأسير، في كل الشرائع الدولية..

– ألم يحضر لك «الحوفيش»، الممرض، العلاج.. هذا غير معقول.. سأبعثه لك حالاً.. لكن الآن، أرجو أن تستلم الطعام..

– العلاج أولاً..

– خذ مني كلمة يا رجل..

– حسناً أدخله.. ولكني لن آكل إلاّ بعد استلام العلاج..

رد ضاحكاً:

– وإذا كان العلاج بعد الأكل..؟

– أحضره أولاً..

«من الواضح لي أن هذا المحقق يقوم بالدور الذي يحافظ على شعرة معاوية، لمواصلة تحقيقاتهم، وحبائل مصائدهم إلى أبعد الحدود».

حضر الممرض.. فتح النافذة، وأطل بنظارته العمياء..

– خذ العلاج..

حبتان صفراوان كوجوههم.. حبتا «أكمول» وبخاخة رفض إدخالها، أشار إليه بأن يفتح فمه، حتى يبخ له فيه.. صاح في وجهه عامر:

– ما هذا العلاج؟ من وراء الحديد؟ أعطني إياها..

– هذا ممنوع..

– أحضر الضابط..

جاء «شلومو» فتدخل بحل وسط.

– أعطه إيّاها.. يستخدمها الآن، ويردها إليك.. وهكذا كل مرة.. ماذا الآن، عن الطعام سيد عامر..

– سآكل الآن، ولكن إن تعثر العلاج مرة أخرى، فسأعلن إضراباً مفتوحاً، لن أنهيه إلاّ خارج هذه الزنازين.

ردّ بصوت عال، وكأنه يقصد إسماع الآخرين، لأن في مثل هذه الحالة التي تحدث فها مشادة كلامية، يشنف لمن في الزنازين آذانهم، لما يجري حولهم..

– لا تهدد يا عامر.. تعلم أننا أصدقاء، وبيننا عيش وملح.

سارع عامر في الرد:

– أية صداقة هذه التي تتحدث عنها.. أيصادق الحمل الذئب؟

– حسناً لا تغضب علينا يا عامر.. إلى اللقاء يا عامر. إلى اللقاء..

* * *

في اليوم التالي، بعد ليلة صافية من الذكر والعبادة والشحن المعنوي قطع على عامر خلوته وجه مألوف.. دفعوا إلى شقته شاباً من خيرة شباب البلد «توفيق محمد» يعرف عامراً جيداً.. بيته لا يعدو عن سابع جار.. معروف بتدينه، ووطنيته، وصدق انتمائه.. نشيط الوجه، باسم الثغر.. ذكاؤه يلمع في عينيه، طويل، عالي الهمة، مرفوع الرأس، سرعان ما يحتل مكانة خاصة في قلب من يتعرف عليه.. أما عامر فقد حفر له في قلبه مكانة محترمة منذ زمن بعيد، رغم ما بينهما من فوارق اجتماعية بعيدة شيئاً ما.. فتوفيق من أسرة مترفة، أبوه له أملاك طائلة، وصاحب شركة مقاولات ضخمة.. نشأ وترعرع، والحياة مبسوطة له، ينفق فيها كيفما شاء، ميلاً للراحة والدعة، ونفوراً من مكابدة الحياة ومشقاتها، تعانقا ثم جلسا يتحدثان بحرارة انفعالية عالية..

– منذ متى اعتقلوك؟!

سأل عامر.

– منذ خمسة وأربعين يوماً.. تصوّر يا عامر.. توفيق له شهر ونصف في الزنازين.. هل تصدق ما تسمع؟

– ولم لا أصدق؟

– بعد اعتقالكم، وسّعوا دائرة الاعتقالات.. أغلب من خرج من الشباب من منطقة «أ» إلى «ب» أو «ج» تم اعتقاله.. أنا اعتقلوني على جسر الكرامة، وأنا مسافر، كما تعلم، لإكمال تعليمي الجامعي.. السنة الأخيرة يا عامر!!

– وأخيراً يا توفيق، فأنت تمر في هذه التجربة المريرة..

– الحمد لله.. تجربة رهيبة، شكلت معلماً بارزاً من معالم حياتي.

– إن شاء الله، تفرج ولن تطول إقامتك..

– تصور يا عامر.. كل قصتي التي يدورون حولها، هي أنه كان لي علاقة بتنظيم في الإنتفاضة الأولى.. تهمة أكل عليها الدهر وشرب. جاءوا ليفتحوا سيرتها هذه الأيام.. إنهم يفتشون في الدفاتر العتيقة.. يا رجل، لو كانت هذه التهمة صحيحة، فإني أكون قد نسيتها منذ زمن بعيد.. لا أدري لماذا ينبشون الماضي؟

– وهل اعترفت لهم بشيء؟

– أعوذ بالله. لم أتذكر شيئاً من هذا القبيل.. إنهم يلفون ويدورون معي، منذ شهر ونصف، دون أية نتيجة.. قل لي يا عامر.. صحيح أنهم قد بدلوا أساليب التعذيب الجسدي العنيفة، التي كانت في السابق؟ تصور أنهم لم يمدوا أيديهم عليّ، فقط قلة النوم والسهر الطويل، على وقع كلماتهم القاسية.

– هناك قرار من محكمة العدل العليا بعدم استخدام العنف في التحقيق!!

– مع الجميع؟! حتى مع أصحاب القضايا الثقيلة؟!

– نعم مع الجميع، ولكني أتصور أنه إذا لزم الأمر، فإنهم بحاجة إلى إذن خاص.. لم يعد الأمر سهلاً بالنسبة لهم..

– أنا تنقلت بين الزنازين، والتقيت الكثيرين.. كلهم لم يُستخدم معهم العنف الجسدي..

– ولكن العنف النفسي يكون أشد عذاباً، في بعض الأحيان..

– أتصور أنهم لهذا السبب استبدلوه، لما له من نتائج عملية أفضل بالنسبة لهم..

– عادة ما يثير العنف الجسدي، وامتهان كرامة المرء، روح التحدي والعناد القاسي، الذي لا تجدي معه هذه الأساليب النكرة..

– أنا لم أجرب سوى هذا الأسلوب.. أنت يا عامر جربت الأسلوبين

وتستطيع التقييم أفضل مني بكل تأكيد..

– الصحيح أن لكل أسلوب ميزاته، بالنسبة لهم.. قد يجدي مع البعض العنف الجسدي، وقد يجدي مع البعض الآخر العنف النفسي. وقد يتطلب الجمع بينهما عند من يستعصي عليه الأسلوبان.. وبالنسبة لنا، فكلها سياط مهما تعددت ألوانها.. والصمود يتطلب الاستعداد لها جميعاً..

وطال بهما الحديث حتى وصلا إلى بيرزيت؛ جبالها الخضراء، ونسيمها العليل، ثم بحديث شيّق وحنان يفيض بين كلمات متراخية، طرقا أبواب جولاتهما الهادئة إلى أطراف البلدة، حيث رائحة الجبل.. الميرمية والزعتر والعشب الأخضر.. نقوش الزهر الأصفر والأبيض والأقحوان الأحمر على البسط الخضراء، التي تتفيؤ ظلال التين واللوز، من البيت إلى الجامعة، في رحلات الشباب الصاخبة.. ومن ابتسامة الحياة والطبيعة الجميلة إلى حركة الانتفاضة والتحرر. التصعيد والأيام الساخنة وغبار المعارك الأسود، ثم الانتفاضة الجديدة وارهاصاتها، وآفاق مستقبلها الواعد.. أخذهما الحديث إلى أماكن كثيرة، وبعيدة، ونسيا الزنزانة الضيقة التي تجمعهما في هذا المكان والزمان الضيقين.. إلاّ أن للمسيرة الطويلة كان هناك نهاية.. ارتد إليهما بصرهما نهاية النفق، فإذا بهما بين هذه الجدران الأربعة.. وجد عامر نفسه أمام سؤال توفيق:

– إلى متى يا عامر؟! هل سيطول بنا المقام؟ متى نعود لمشوار الحياة.. الحياة الطبيعية الآمنة من مكر هؤلاء..

– قريباً، إن شاء الله.. أنت إذا ثبتّ على موقفك، فسيضطرون للإفراج عنك، إن شاء الله. إياك أن تتصور أن المسألة قديمة وغير مهمة.. محاكمهم لا تفرق بين القديم والحديث..

- وأنت يا عامر؟

قفز قلب عامر من مكانه على هذا السؤال.. غاص في نفسه: «صحيح أن توفيق شاب طيب، وثقة، والحديث يجر، ويفتح الشهية للإدلاء ببعض التصريحات الخطيرة.. ولكن هناك محذوران يشتعلان دوماً، في صدري.. قد يكون هناك تنصت وجاءوا بهذا «الثقة»، كي أضمن عدم «عصفوريته» وبالتالي، أتحدث، فأروي لآذان أجهزتهم بما يريدون.. والمحذور الثاني، هو ما أدراني ماذا حدث مع هذا «الطيب»، في هذه الجولة من التحقيق؟! ألا يحتمل بأن يكونوا قد عرضوا عليه العمل معهم إما بالضغط والإكراه، أو بالترغيب والإغراء؟؟ هذا كثيراً ما يحصل.. هذا الأخ يحتاج إلى السفر، وهو في السنة الأخيرة للتخرج، إذن، فهو قابل للضغط عليه، عدا عن بنيته الاجتماعية، التي قد لا تحتمل الضغط.. فالحذر الحذر يا عامر..»

- ما لك صمت يا عامر.. هل ضايقك سؤالي؟

- لا، لا أبداً.. أخذني سؤالك إلى حيرتي منذ أن اعتقلوني.. لا أدري ماذا يريدون مني.. إنهم لا يعذبون التعذيب الجسدي الذي اعتدت عليه في المرة السابقة، وفي الوقت نفسه يرهقونني بتعذيب نفسي على مدار أكثر من خمسين يوماً.. ماذا يريدون؟! الاعتراف؟! الاعتراف على ماذا؟! لا أدري.

- أنا أقول لك.. لقد أخذنا الحديث، ونسينا إبراهيم ونبيل. لقد التقيت بهما في رحلتي هذه بين الزنازين.. لقد اعترفوا بتورطهم بعملية عسكرية، على ما ذكروا لي.. وقد يريدون منك بخصوص هذا الاعتراف، وهو علاقتك بهم؟

بدأت علامات الاستفهام تشتعل ناراً في عقل وقلب عامر.. «ماذا يريد

هذا الطيب الثقة؟؟؟!»

– ولكني يا توفيق، لا علاقة لي بأي شيء من هذا القبيل..

أجابه بشيء من الحدّة..

– هذا كلام يا عامر، لا تأخذ به.. قلت لك ما سمعت لا أكثر ولا أقل.. المهم دعنا نخرج من هذه السيرة.. لنخرج من هذا المكان إلى «بير زيت» حيث كنا قبل قليل..

وعاد الحديث إلى مجاريه الهادئة.. إلاّ أن جداول صدر عامر امتلأت بالهواجس والشكوك: «لماذا حاول توفيق الوصول إلى ما عندي؟! هل هو الفضول فحسب، أم أن هناك أمرًا آخر؟! لماذا نقل لي أخبار اعترافات نبيل وإبراهيم..؟ هل هو زعزعة روحي المعنوية؟! هل يريدون مني إعادة ترتيب حساباتي؟ يريدون وضع سؤال في رأسي: ما هي فائدة الإنكار بعد اعتراف صاحبيك؟! هل جاءت أسئلته عن قصد أم دون قصد؟! هل تتشكك في توفيق يا عامر؟! معاذ الله، ولكن الحذر واجب..»

* * *

في اليوم التالي، بعد سهرة ممتعة قضياها معاً في غياهب هذه الزنزانة، طُلب توفيق للتحقيق ساعتين تقريباً، ثم عاد ثانية.. بدا منهكاً، وكأنه قد عاد من معركة عسكرية، كان فيها مهزوماً.. كان شاحب الوجه، غائر العينين، ومطرقاً برأسه نحو قدميه.. سأله عامر مستغرباً:

– ما لك يا توفيق؟! ماذا جرى لك؟!

– إنهم يلحون عليّ.. يريدون إغلاق الملف، وتسوية القضية بأي ثمن.. يعدونني بتبييض صفحتي أمام المخابرات.. صفحة بيضاء وإغلاق الملف مقابل الاعتراف بالتنظيم.. لقد طالت أيامي معهم يا عامر..

مال عليه عامر، وهمس:

– أتصدقهم في هذا الوعد..؟ انتبه؛ الاعتراف بالتنظيم يعني: مَن نظمك؟! من معك في التنظيم؟! من نظمت؟! ما اسم التنظيم؟! ماذا فعلت في التنظيم؟! ستفتح على نفسك نفقاً لا نهاية له.. اثبت على موقفك، ولن يطول الأمر بك، بإذن الله. استعن بالله ولا تعجز.

– خمسة وأربعون يوماً يا عامر.. لقد طال الأمر..

– إنهم يراهنون على هذا.. ليكن نَفَسك أطول من نَفَسهم.

ويتساءل عامر مع نفسه.. واضح أن الجبهة الداخلية عند توفيق، في حالة تراجع.. قد تتهاوى في أية لحظة.. لماذا يدخلونه عندي؟ لأرفع معنوياته؟! أمرهم عجيب، إذ أن منطقهم يؤكد بأن عليهم بعثه إلى من يضعضع معنوياته، لا إلى من يقوي دعائمها..

«ضع علامة استفهام يا عامر واحذر..»

ومضت ثلاثة أيام أخرى، من الانسجام الرائع بين الصديقين عامر وتوفيق.. كان توفيق خلالها يُظهر، بين الحين والآخر، تساؤلات بريئة، فيتجنب عامر الإجابة عليها، بأدبٍ جم وقليل من الذكاء، مع تردد تساؤل كبير في أعماق صدره..

«لماذا يعود لمحاولة معرفة ما هو مدفون في صدري؟! أهو الفضول أم هو أمر آخر؟!»

طُلب مرة أخرى، ثم عاد يسب ويلعن..

– هوّن عليك يا توفيق.. جيد أن تحافظ على هدوئك.. إياك أن يستفزوك.

– يا عامر.. لم يعد الأمر يحتمل.. إنهم يضغطون عليّ بشكل غير معقول..

وضع راحة يده على عضد عامر، وتابع بانفعال شديد، ووجهه يقطر حمرة:

– هل تتصور يا عامر: ماذا يريدون من ضغطهم عليّ؟!
– طبعاً يريدون منك الاعتراف بما يتهمونك به..
– ليت الأمر بقي على هذا..
«ماذا؟! أمر هذا «الطيب الثقة» في غاية الغرابة.. ماذا وراء هذا الرجل؟». ولفّهم الصمت بعمقه المديد.. وجدوا أنفسهم في قاع سحيق لا تسمع فيه إلاّ وجيب القلوب التي تعالت دقاتها.. قطع عامر هذا الصمت المخيف وهتف:
– ماذا هناك يا توفيق؟ أنا أخوك يا توفيق، تكلم..
– تعاهدني على أن يبقى هذا الحديث سراً بيني وبينك؟
– أعاهدك.
– إذاً اسمع قصتي مع هؤلاء الأوغاد.. أتعلم أنهم يريدون مني، الآن، أن أعمل «عصفوراً» على من؟! على صديقي عامر.. هل تتصور هذا؟!
«وبدأت عيناه تتنازعان الدموع.. تغلق جفونه أبوابها على عيونه، وتحاول جاهدة منع سمائها من القطر.
– بدأت القصة عندما استلموني بالتهديد والوعيد.. قالوا لي: إن مستقبلك يا توفيق قد ضاع.. سنحوّلك إلى الاعتقال الإداري، ونجدد لك المرة تلو الأخرى.. بعد عدة سنوات، وإذا مللنا منك في السجن فسنطلق سراحك، ولكن إياك أن تفكر بالسفر لإكمال تعليمك.. سنجعل من حياتك سجناً صغيراً، أو نجعلك في سجن متحرك طيلة حياتك.. وبعد أيام طويلة من الضغط والتهديد، عرضوا عليّ أن أعمل معهم للخلاص من هذه الورطة.. وسوس لي شيطاني فيّ، وأنا في حالة يائسة، وفي غاية البؤس والشقاء أن أتحايل عليهم، قلت: أعدهم بالعمل معهم، مقابل اطلاق سراحي، فإذا أفلتّ من بين أيديهم، فأنا في حل من أمري. قالوا لي في البداية لا

نريد منك أشياء خطيرة.. فقط بعض المعلومات البسيطة تزودنا بها، أثناء دراستك في الأردن.. إن لم نعرفها منك عرفناها من غيرك.. معلومات عادية لا تسمن ولا تغني من جوع.. قلت في نفسي: عظيم.. إذا خرجت من هذه البلاد، فليس عليّ أي رباط.. سأكمل تعليمي، ثم أعود بشهادتي، وليفعلوا بعد ذلك ما يريدون.. صدقني يا عامر: وافقت على عرضهم، وفي نيتي التحايل عليهم وخداعهم.. لم أفكر، ولا لحظة واحدة بأن أخون ديني وضميري ووطني.. هذا مستحيل، ولكنها حالة ضعف، وقعت فيها تحت ضغطهم، واستغلالهم لحاجتي الماسة للسفر وإكمال تعليمي..

– ولماذا لم يطلقوا سراحك ويفوا بتعهداتهم؟! بإمكاني أن أتوقع حسب خبرتي معهم في الحبسة السابقة.. إنهم يريدون أن يورطوك بشكل عملي، حتى يصعب عليك التراجع، وحتى يقبضوا بأيديهم على ممسك قوي عليك.. إنهم ليسوا أغبياء.. يتوقعون منك خداعهم، فيحتاطون لذلك بتوريطك..

– وهذا ما حصل فعلاً.. طلبوا مني إثبات حسن نيتي، قبل إطلاق سراحي، والسماح لي بالسفر.. قلت لهم: كيف؟ فقالوا لي بأن لديهم شخصاً أعرفه جيداً، والمطلوب مني أن أحصل على ما لديه من معلومات خطيرة تهمهم وعن طبيعة علاقته مع نبيل وإبراهيم. أعرفت من يكون هذا الشخص؟ واضح أنه أنت، لقد عشت أصعب أيام حياتي.. لم تكن هذه الأيام التي خلت سهلة.. كان الصراع على أشده.. مستقبلي الذي أصبح بين أيديهم، وهذا الوحل الذين يريدونني أن أمرّغ فيه أنفي.. انزلاق القدم في مستنقع الخيانة، أو شهادتي وإكمال تعليمي. يبسّطون لي شأن الخيانة، وأنها مجرد معلومات بسيطة، وفي المقابل يهولون

شأن دنياي ومستقبلي الواعد.. كيف أبني مستقبلي على تعاسة غيري.. أبني حياتي على أنقاض حياة غيري.. وحياة من؟! الذي سيجعل حياة أعزائي وأبناء وطني قاعاً صفصفاً.. أنا.. يداي هاتان.. يا للمصيبة!! أمر لا يتصوره عقل.. ولقد أدركت المصيبة، عندما سمعت أن المعلومات المطلوبة مني عن عامر معلومات خطيرة، أي أنني قد أتسبب له بحكم طويل في السجن.. وحتى لو كانت بسيطة، فما أدراني أنها لن توصلهم إلى ما هو أكبر منها؟! لقد سمعت قصص العملاء الذين أدت معلوماتهم إلى تصفية كوادر فلسطينية.. معلومات «بني عودة» مثلاً، ساعدتهم في تصفية ابن عمه.. يا للكارثة.. لم يمت ضميري يا عامر، بفضل الله. لقد وصلت إلى حافة الهاوية، أوشكت أن أتصيّد منك بعض المعلومات.. كنت أقول في قرارة نفسي: لن أبلغهم بكل ما أعلم.. سأثبت لهم حسن نيتي بمعلومة بسيطة، لا تقدم ولا تؤخر، كعظمة تلقيها لكلب.. ولكني صحوت قبل فوات الأوان.. صحوت، عندما وجدتك حريصاً على شدّ معنوياتي، وإسداء النصح لي بكل صدق وأمانة، في حين كنت أنا أتربص لك.. لقد خجلت على نفسي من هذه المقارنة البسيطة.. رأيتك وأنت خاشع في محراب إيمانك.. تناجي الله بكل حب وافتقار، رغم ما بك من ضنك وابتلاء.. تصبر، وتحتسب بكل طمأنينة واتزان.. رجعت إلى نفسي.. أين أنت من الله يا توفيق؟ أتخفي ما في نفسك عمن (يعلم السر وأخفى)؟! تحركت مخاوفي أمام الله، واشتعل ضميري بنار جهنم التي تترصد من ضل وطغى.. كنت أسمعك وأنت تصلي وتقول: (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، فأتصورك في صف المنعم عليهم، وأنا في صف المغضوب عليهم، مذموماً مدحوراً.. هكذا، فجأة، في صف اليهود يا توفيق.. لم أعد أتحمّل هذا العذاب

النفسي يا عامر، لعدة أيام، فيكف يريدونني أن أعيش حياتي بصحبة هذا العذاب؟ كيف بي، وقد تورطت، وتسببت في إحلال المصائب على رؤوس غيري وتمرغت في مستنقعاتهم حتى النخاع..؟ لم أعد أتحمل.. أتدري لماذا طلبوني اليوم..؟ إنهم يهددونني بافتضاح أمري معهم، إذا لم أحصل على ما عندك من معلومات.. زودوني ببعض خبثهم ومكرهم في طرق استدراجك.. قالوا لي: نحن لسنا على عجلة من أمرنا.. معك أسبوع كامل.. لا تسأله.. لا تفاتحه.. تكلم ودعه يتكلم، حتى يقع.. سوف يسرّ لك ببعض المعلومات.. هي ما نريد.. نحصل عليها أخيراً عن طريقك، أو عن طريق غيرك.. فقط، نريد إثبات حسن نيتك معنا، حتى تطمئن قلوبنا باتجاهك.. شيطاني كان يقول لي نفس كلامهم: المعلومات سيحصلون عليها عاجلاً أم آجلاً، فلماذا لا تكون عن طريقك فتحقق بذلك مصلحتك. ثم تهاجم هذه الفكرة الجهنمية فكرة رحمانية: «أتريد أن تكون سبباً في سجن ومعاناة غيرك يا توفيق؟» لم أعد أتحمل وها أنا قطعت على الشيطان كل طرقه، وحدثتك بكل شيء.. أنت صاحب تجربة يا عامر، فأرشدني ما العمل الآن؟ أريد أن أحافظ على طهارتي، وطهارة عائلتي يا عامر.. لن أدعهم يدنسون طهارتنا، بإذن الله.

شدّ عامر يديه على يدي توفيق وقال:

– لقد انتصر فيك داعي الخير على داعي الشرّ.. صفة الرحمن تغلبت على صفة الشيطان.. التراجع في بداية الطريق سهل يا توفيق.. ما عليك إلاّ أن تتحداهم تحدي الرجال للرجال.. صدقني، إنهم دون الرجال.. ليركبوا أعلى ما في خيلهم.. اهزأ بهم، وقل لهم: كيف صدقتم بأن رجلا مثلي، يوافق على عروضكم السخيفة..؟ قل لهم: تريدون مني استبدال الجنة بالنار..؟ معاذ الله، فأنا مؤمن، وليي الله. لن أكون

ظهيراً للمجرمين، ووليّاً للشيطان.. أنا من عائلة كريمة، وأنتمي لشعب أبيّ. لن أعطي ولائي لقتلة الأنبياء، وشذّاذ الآفاق..
– سأفعل هذا بكل قوة وصلابة..
قال ذلك وعيونه ترمي بنظرات صارمة وعزم جازم..
– وإذا أعادوا لك أسطوانتهم؛ الشهادة والتعليم والسفر، فاسخر منهم.. قل لهم: هذه أمور ليست مهمة.. أستطيع مواصلة تعليمي في جامعات الداخل.. والسفر؛ أستطيع رفع قضية عليكم، وتحصيله في المحاكم.. أما إذا هددوك بالإداري، فكما تعلم، فإنّ التجديد هذه الأيام لا توافق عليه المحاكم بسهولة.. لا تكترث بهذا الأمر، واسخر منهم إذا هددوك به..
– سأتحداهم، وسأشبع سخرية، إن شاء الله.
– قواك الله يا توفيق.. لا تحمل همّاً لأي شيء، وتوكل على الله. (ومن يتوكل على الله فهو حسبه).
عاد عامر إلى أعماق نفسه بعد هذا الحوار الساخن.. سبحانك ربي ما أرحمك.. على المرء أن يكون حذراً من كل مخلوق يقابله في هذه الزنازين. فعلا: «الثقة لا تلغي الحذر».. توفيق؟! الحمد لله الذي ثاب إلى رشده، وهو في بداية طريقه معهم.. يريد أن يخدعهم؟؟ هه.. لا يعلم المسكين بأنهم سوف يغسلون دماغه، ويميتون ضميره ويكبلونه بالمزيد من المماسك التي يصعب الخلاص منها.. هؤلاء «العصافير» الذين يعملون معهم بكل إخلاص، كيف وصلوا إلى هذه الحالة التي ماتت فيها ضمائرهم وغاب الإيمان من وجدانهم؟ (نسوا الله فأنساهم أنفسهم).. أصبحوا مجرد أدوات، تتحرك بأيدي المخابرات. عاثوا في نفوسهم فساداً كبيراً قضى على كل معاني الخير.. لم يتبق أي شعور بالانتماء لدينهم، أو

وطنهم أو شعبهم.. أو حتى انتمائهم العائلي، الذي يلفظ هذه النفوس الخاوية.. لماذا كل هذه التضحية بأثمن ما يملك الإنسان أمن أجل سواد عيون المخابرات؟! أم من أجل منفعة مادية؟ باعوا أنفسهم بثمن بخس.. ارتكاس رخيص في مستنقعات اليهود، لا يقع فيه إلاّ من ارتكست نفسه، وقبلت أن تسير على خطى المخابرات.. خطوة وراء خطوة.. والخطوة اللاحقة أوسع من التي سبقتها حتى يموت فيه كل شيء، ويصبح معول هدم، أو سوسة تنخر كيان شعبه وأمته..»

* * *

جددت المحكمة توقيف عامر شهراً إضافياً، بعد أن قضى شهرين بالكمال والتمام، في هذه الأقبية على عروشها.. للتمديد وقع ثقيل على النفس.. تعود من المحكمة، وعلى كاهلك جبل ثقيل من الأيام، التي تتقدم إليك، لتحطّ رحالها في ديارك، ويطيب لها المقام.. وبإمكانك القول، بأن كل يوم ينتظرك، كأنه جبل بحاله. تعود من محكمة التجديد ومعك سلسلة من الجبال.. يحوقل عامر، ويستعين بالله، ويشحذ عزائمه من جديد.. يعزي نفسه قائلا: إنس ما مضى.. اليوم هو تاريخ اعتقالك.. ابدأ بالعد ابتداء من اليوم.. (وربك يخلق ما يشاء ويختار).. أيامي في هذه الزنازين بمقدار.. يقدرها ويختارها لك أرحم الراحمين.. (أياما معدودات)، وتنقلب المحنة إلى منحة؛ إذا قضيتها صابراً وصامداً، وخرجت منها منتصراً على أعدائك.. استعن بالله، واياك أن تعجز، أو تتراجع، أو تلقي السمع لهمس الشيطان.. سواء كان إنساً أو جاناً.
كانت صحة عامر تتحسن في هذه الأيام.. بدأ الجسم يتضيف أنفاس الهواء، برحابة صدر.. كان صدره ضيقاً في الأيام التي خلت، (كمن يصعّد في السماء)، فأصبح الآن واسعاً فسيحاً، ينعم بالمزيد من الهواء،

إلاّ من حشرجة خفيفة تصفِّر دون أن تنخرها الآلام.. هل تراهم ينتظرون تحسن أحواله الصحية، كمن يسمنون خروف العيد، لإعداده للذبح؟ أم أنهم قد يئسوا منه؟! هل يراهنون على عامل الوقت، وملله من هذه الزنازين، فيسارع للاستجابة لمكرهم نهاية المطاف، خلاصاً من هذا الضيق وطلبا للخروج من هذه الحال؟!

يتناوب الليل والنهار، وعامر لا يدري، إلاّ من خلال تناوب وجبات الطعام؛ فالشاي المثلج، وقطعة الزبدة الصفراء، مع ملعقة المربى، تكون فطوراً، أما حبيبات الأرز وصحن الحساء، الذي يجوز فيه الوضوء لغلبة الماء فيه، وقطعة اللحم أحياناً، فهي الغداء، والثالثة؛ مهما كانت فهي على الترتيب، العشاء.. ويمضي نهار برحيل الوجبات الثلاث، ويأتي ليل ليسلم زمامه له، بسفر طويل لا تتخلله الوجبات.. أحياناً، يسمع صيحاتٍ من حوله، تطالب بالولعة المقدسة، لحضرة السيجارة اللذيذة!! ترد صيحات الشرطة بالهمهمة، التي تنكر من يتجرأ، فيعلو بصوته فوق صوت السجان. وأصبح عامر في هذه الأيام التي زادت على الستين يُزار كثيراً.. لم يكن من السهولة أن ينفتح عامر على ضيوفه، بعد قصته مع توفيق.. الرجل «الطيب الثقة»، ابن الحسب والنسب، لصديق الجار.. يرتاح له القلب، وتنسجم معه الروح.. جاءه، عيناً عليه.. ماذا يتوقع الآن من هؤلاء الذين لا يعرف عنهم شيئاً؟! لذلك وجد نفسه يعيش، نسيجاً وحده، ويعاود إحياء أنسه بالله. عاد إلى رياض الذكر، بعد أن فترت همته، عندما وجد نفسه متخففاً من مطارقهم اللعينة. رتب أوقاته بشيء من الحزم، كي يفرض على نفسيته الأجواء التي يريدها.. هم يريدون له الإنهاك النفسي والملل القاتل، الذي يُفضي به إلى طلب الخلاص، ولا يكون الخلاص إلاّ من بوابة الاعتراف.. وهذه

هي المعادلة التي يريدون فرضها عليه.. ولكنه وضع لنفسه معادلة أخرى.. الذكر يبدد الملل، وينزل الطمأنينة في القلب، عدا عن شعوره بأنه يستفيد من أوقاته على الصعيد الروحي، وبالتالي فإنّ أيامه العجاف هذه تكون بمثابة خلوة، هو يطلبها ويريدها.. وعلى قاعدة ابن عطاء السكندري، التي كان يحفظها جيداً، أقام بنيانه.. «ما نفع قلبٍ مثل عزلة، يدخل بها ميدان فكرة». هي المعادلة إذاً: عزلة الفكرة، وميدان القلب الذي لا حدود له.

برمج عامر أيامه على هذه المعادلة.. من وجبة الفطور إلى وجبة الغداء؛ تسميع بعض ما يحفظ من القرآن.. من وجبة الغداء إلى منتصف المسافة تقريباً من وجبة العشاء، كان يستغرق في ذكر لا إله إلاّ الله.. يطرد كل شيء من ساحة قلبه، ولا يبقي إلاّ الله وحده.. فلا خوف، ولا قلق، ولا رجاء، ولا اعتماد، ولا تعلق، ولا فرج، ولا.. إلاّ من الله وحده.. إلاّ من الله الحي القيوم القريب المجيب السميع البصير الرحمن الرحيم..إلخ. بحر واسع، يحلو له السباحة فيه، بلا كلل أو ملل، بل بالعكس تماماً، بالطهارة من كل ما يعلق في النفس من جزع، أو هلع، أو توتر، نتيجة هذه الظروف العصيبة التي يمّر بها.

وقبل العشاء بساعة، أو ساعتين، كان عامر ينعم في صحبة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خصصها للصلاة عليه.. استعذب حلاوة محبة رسول الله، وعاش في سيرته، وفي رحاب شمائله وصفاته العطرة. وكان الليل للقيام والدعاء والاستغفار.. هذه إذاً، معادلة عامر التي أبعدت نفسيته عن المعادلة التي يريدون تكبيله بها.. وأصبحت الأيام تكرّر نفسها، وتتحرك ببعض الحيوية والنشاط.. كانت كمن كان في سباق طويل، ثم وقع أرضاً يتخبط في أنفاسه، التي أعياها التعب، ثم

يعاود الركض من جديد.

* * *

في اليوم الثمانين لاعتقال عامر، سحبوه من زنزانته العتيدة.. وضعوا على عينيه نظارتهم السوداء، وانطلق معهم دون أن يودع من رافقته هذه الأيام العصيبة.. سار في سراديبهم قليلاً، ثم وجد نفسه تحت نفحات الهواء الطلق. هواء يجوب حنايا الصدر، دون أية منازعة.. ذهب الصفير، وراحت الحشرجة أدراج هذه النسائم العذبة.. قدّر عامر بأن الشتاء قد ارتحل، وناب عنه ربيع هادئ دافئ.. انتشلوه بسرعة من وسط هذه الأجواء العبقة برائحة الربيع، إلى هودج حديدي مصفح، تحمله سيارة؛ يثور صوتها، ثم تنطلق لا تلوي على شيء.. قدر عامر بأنها سيارة «جيب»، وبأنها تسير به طريقاً يعج بالسيارات الأخرى، سأل:

- إلى أين؟!

فصفعته إجابة جاهزة:

- اسكت.

تساءل في نفسه: من المسكوبية إلى أين يا عامر؟! هل تراهم قد أنهوا التحقيق معي، وآن الأوان لنقلي إلى السجن؟! أم إلى «غرف العصافير» كمحاولة من محاولاتهم اليائسة؟! أم هو نقل إلى مركز تحقيق آخر؟! إلى عسقلان مثلاً؟! ومع هبوط السيارة ونزولها، ومع رشقات الهواء التي كانت تتسلل من شقوق النوافذ، وحسيس محرك السيارة الذي كانت تشتد همته، ثم تعود للارتخاء.. مع هذه الأصوات التي ارتعش لها وجدانه، راح يستذكر رحلاته الربيعية الممتعة..

«تقود السيارة يا عامر بهدوء، على أنغام موسيقى لذيذة ممتعة.. زوجتك

مع طفلك يمتطيان المقود الخلفي، ويزينان المرآة التي تنظر إليها فوق رأسك.. ترى الوجود حولك جميلاً.. كتلة من الروعة والجمال تناجيك من الخلف.. وجزء من روحك يبتسم للحياة، ويعطر عليك سماء قلبك.. ويأتيك فيض من الحنان الدافئ بلا انقطاع عن عينيك، ونظرات أم عامر تسكنك أعماقها الفسيحة.. ولا تنسَ المنازعات التي كنت ترسل إليها قوات التدخل السريع بين زوجتك وحماتها.. تضحك لك الحياة وتفتح لك ذراعيها.. تغدو وتروح في رحاب الله الواسعة.. ها أنت ترتكس خلف هذا الحاجز الأسود.. يسد عليك الأفق ويمنعك من ضياء بلدك وربوع وطنك الحبيب..»

بعد حوالي الساعة والنصف، توقفت السيارة، وهدّأ المحرك من روعه.. فتحوا الباب، وسحبوا عامراً إلى دهاليز جديدة، ثم نزعوا نظاراتهم اللعينة، فإذا به في مكتب تحقيق، مع وجه جديد من المحققين.. كان الإجرام يتكلم في هذا الوجه.. قطعة لحمية جامدة، عريضة، كأنها قطعة صخرية صمّاء، مقطب الجبين، عابس الوجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.. تناثر الغضب عن وجهه كأمواج صاخبة، وعوّى:

– أنت عامر عبد الحكيم؟

– نعم.

– أتدري أين أنت الآن؟! أنت الآن في تحقيق «عسقلان»، يعني: الله يرحم أيام المسكوبية.. قصتك منتهية، فماذا تنتظر لغاية الآن..؟ أصحابك حولناهم إلى السجن بعد أن اكتملت اعترافاتهم.. لماذا لا تلحق بهم؟! إلى متى ستبقى في هذه الزنازين؟ أجبني على هذا السؤال.. ألم يحضروهم لك؟! ألم يعترفوا أمامك؟! هيا.. هيا..

– من هم؟!

- أصحابك الذين اعترفوا عليك.. نبيل وإبراهيم.

- لا علاقة لي بهم.

- إذاً، فأنت مُصرٌّ على عنادك.. أتدري ماذا ينتظرك هنا؟!

- ....

- هنا سيد عامر، سنبدأ معك من نقطة الصفر.. إنس أيامك في «المسكوبية».. إنها «لعب عيال».. أنا أدعوك الآن، أن تعود إلى رشدك قبل فوات الآوان.. أنظر إليّ، وفكر معي جيداً.. لنبدأ بالقصة أولاً.. كيف وصلنا إليكم؟! كيف اعتقلناكم؟ حسب ما لدي من تقارير، أنت رجل عاقل.. ألم تفكر طيلة هذه الأيام الطويلة بالإجابة على هذا السؤال؟ كيف اعتقلناكم بهذه السرعة؟ هيا، أجب..

- ....

- لا يوجد عندك جواب؟ أنا أصدق.. حسناً.. أنا أجيبك. ألم تسمع بشيء اسمه «التنسيق الأمني».. ألا تعرف أن بيننا وبين السلطة الفلسطينية، تنسيقاً أمنياً على أعلى المستويات.. هذا أمر معروف.. يعرفه الصغير قبل الكبير، وهذا يعني أن كل من يعمل مع السلطة، هو عين لنا.. أتوجد عائلة لا يعمل فيها أحد مع السلطة؟ إذاً، لنا عيون منتشرة في كل مكان.. لنا عيون في كل عائلة.. عليك عيون في عقر دارك.. لقد وصلتنا معلومات أكيدة من لجان التنسيق الأمني، أدت إلى اعتقالكم.. أدلة دامغة...

«أدلة دامغة.. ختم تختمون به كلامكم، ولكن عندي ختم آخر على كلامكم.. ختم رباني لا يأتيه الباطل (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) فاسق؟! أما هؤلاء فهم أفسق الفساق.. يهود.. كلمة لا تحتاج إلى تعليق..»

– معلومات التنسيق الأمني، وحدها، كافية، ومع ذلك جاء أصحابك واعترفوا.. ماذا تريد بعد ذلك؟ عرضوا عليك الماكنة التي تكشف الكذب فرفضتها، خوفاً من انكشاف أمرك؟!..

– أنا لم أرفضها.. فقط طلبت أن تكون عند طرف محايد..

– هذا يعني رفضها..

قالها بشدة ثم تابع حانقاً:

– لم يبق أمامنا سوى أمر واحد، لا أتمنى لك أن تصل إليه..

صمت طويلاً، وهو محدق في عيني عامر.. تململ وقال:

– ماذا نعمل لم يبق أمامنا سوى هذا..

«لطفك يا رب، إلى ماذا يريد أن يصل؟».

– أتعلم يا عامر، أن زوجتك ما زالت رهن الاعتقال.. إنها هنا في عسقلان.. أتحبّ أن تراها؟!

– ....

– لا تريد أن تراها؟ أنت حرّ..

«ماذا يريد اللعين من هذه السيرة؟».

– أنت سجين قديم، وتعرف كيف يكون حال المرأة في الاعتقال..

«أعلم ذلك جيداً.. (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين)».

– هنا عندنا محققون ومحققات.. المهم أن نصل إلى الحقيقة.. الذي يحيرني أن حقيقتك عندنا، ولكنك تعاند.. ما العمل لم يبق أمامك إلاّ أن تحافظ على نفسك وأهلك.. سؤال أخير.. لا تريد أن تعترف ونغلق هذا الملف؟! الاعتراف وإلا.. أنصحك بالاعتراف.. أنصحك، وإلا ستندم طيلة حياتك.. هيا، تريد مني طرف خيط.. اجتمعتم سرا واتفقتم على.. هيا أكمل..

– أي اجتماع وأي سرّ؟! أنا لا علاقة لي بكل هذه الأمور..
– أنت تصر على عنادك.. لا يوجد هناك مفر.. «جاجة حفرت على راسها عفرت».. لنا لقاء يا أستاذ عامر!!
وخرج طارقاً الباب خلفه بعنف. بقي عامر في المكتب الضيق بصحبة صورة مجرمهم الأول «هرتسل».. يطل بعينيه اللتين تطلقان الحقد بشراسة.. طاولة جرداء من كل شيء، سوى تلفون على أحد زواياها.. ومكيّف معلق على أحد الجدران، وينعق بصوته البارد.. ويتساءل وسط هذا الهدوء الذي يسبق العاصفة: ما طبيعة هذه العاصفة التي يمهد لها هذا اللعين؟! أصحيح ما قاله أن زوجتي رهن الاعتقال الآن؟! ماذا يريدون منها؟ بالتأكيد يريدون الضغط عليّ بها.. هذا إن صح كلامه، وتلميحاته؟! محققون ومحققات؟! أنا أعلم أنهم لا يجرؤون على الاقتراب من عِرض امرأة.. رغم أنهم يهود، ولا أستبعد عن اليهود أي شر.. سلم يا ربّ.. لا حول ولا قوة إلاّ بالله.. سترك وحفظك يا الله».
فُتح الباب ولأول مرة تدخل محققة.. مدهونة الوجه بألوان فاتحة رسموها جيداً.. مكتنزة بارزة العينين، دقيقة الأنف.. تتكلف ابتسامة تظهر من خلالها أسنان بيضاء متفرقة، كأنهن زرع نبت في أرض نكدة.. لم يدر عامر هل هي جميلة أم قبيحة.. لم تمر بخلده كفتاة، لها طابع المرأة، وإنما نظر إليها ككتلة بشرية، تحمل صفة أنها محققة مجرمة، تسير مع الركب نحو الهدف نفسه.. قالت بصوت يشبه المواء:
– زوجتك تسلم عليك..
– زوجتي؟! ولماذا تعتقلونها؟!
– بعض التحقيقات الضرورية.. أنا التي تتولى التحقيق معها. طبعاً، مع مشاركة بعض الزملاء أحياناً..

«لماذا تخبرني هذه اللعينة بهذا الكلام الذي قد يكون كذباً من أساسه؟!
– والآن سيد عامر، لماذا لا تريد أن تخلّص نفسك، وتخلّص زوجتك؟؟
إنت بيدك مفتاح الفرج.. الفرج والحرية لا تقدر بثمن.. عندما تنطلق واضعاً يدك بيد حبيبة قلبك.. تمتع نفسك في هذه الحياة الجميلة.. قل لي: ما الذي ينقصك لتعيش حياتك بسعادة؟
«أيتها اللعينة وهل أبقى لنا احتلالكم سعادة؟ ولكن ماذا تريد من هذا الكلام الفارغ؟»
ثم وجدها عامر بعد أن رعت طويلاً، تقرّب كرسيها من كرسيّه، ويتخافت صوتها حتى يصبح همساً.. كانت تريد الإيحاء بأجواء خاصة، تذكره بالجنس الآخر، ونفحات الرغبة الجنسية.. تريد أن تضخ أمواجاً رخية، ترتعش لها وجدان الرجولة في حناياه.. وتقترب أكثر، ويتبادل على عامر الإحساس بفحيح أفعى، والإحساس بنداءات الرغبة والشهوة، ثم تجده يستذكر قصص الإسقاط التي كثيراً ما مرّت عليه، وكانت بوابة الجنس هي بوابة الجحيم، والوقوف على شفى جرف هاوٍ، يتداعى به إلى نار جهنم.. وانتفض عامر كالديك المذبوح، عندما وجدها تعبث بأزرار قميصه..
– ماذا تعملين أيتها الأفعى؟ ابعدي عني.. تعلمين جيداً عواقب التحرش الجنسي عندكم؟
ومما أشعل الغضب في عروقه أنه رأى لمعات «فلاش» آلة تصوير. أدرك أن هذا التصوير سوف يوظفونه في حيلهم الخبيثة..
تراجعت وتخزبلت خلف الطاولة، بعد أن تطاير الشرر من عيني عامر..
دخل المحقق المتجهم، فقامت هذه الأفعى وسألت وهي خارجة:
– هل تريد شيئاً من زوجتك؟

- لا.. لا أريد شيئاً.

فهم عامر رسالة هذه الخبيثة جيداً.. كما تتصرف معك هذه المحققة، هناك على الطرف الآخر، محقق يتصرف مع زوجتك. ولكنه كان على ثقة، بأنه كما تصرف معها ستتصرف زوجته معهم، ثم إن (الله خير حافظ وهو أرحم الراحمين). وكذلك فإن مخططهم أن يستجيب لهذا الضغط الاجتماعي لابتزازهم، وبالتالي فإنّ عليه الوقوف في الخط المعاكس لهذا الضغط فلا يستجيب له.. هكذا كان عامر ينظر إلى هذا الأمر..

في اليوم التالي، جاؤوه بالصور التي ألقوا القبض عليها، وهو مع تلك المحققة اللعينة.. عرض عليه ذاك الوجه المتجهم صورة المحققة، وهي تعبث بأزرار قميصه.. وسأل بخبث:

- ما رأيك بأن نعرض هذه الصور على زوجتك؟!

«الأغبياء! وكأن مكانتي عند زوجتي، أو عند الناس أجمعين، أهم من مكانتي عند الله.. إنهم لا يدركون معنى أن يكون الإنسان مؤمناً بالله، وأن رضى الله هو الاعتبار الأول والأخير في حياته.»

لاحظ المحقق عدم اكتراث عامر في هذه الصور فأخرج أخرى:

- وهذا يا عامر؟!

«كانت صورة «مدبلجة».. شفتا اللعينة على شفتيه، وصدرها على صدره دون أن تظهر ملامح وجهها بشكل واضح، وكأنها امرأة غيرها.. صورتان متداخلتان بشكل فاضح.. وعامر يظهر بكل ملامحه، وكأنه بطل الفيلم في هذه الصورة..

ابتسم عامر وتلقى هذه الصورة ببرود.

- كيف يا عامر لو نشرنا هذه الصورة عندكم في البلد؟!

«يا لكم من أغبياء.. أصحاب أفلام محروقة.. لم يحدث في السابق أن نشرتم مثل هذه الصور التي تفضحكم قبل أن تفضحنا.. ثم هَبْ أنكم قمتم بهذا العمل الحقير، فهذا لا يضيرني، لأن الله مرادي، وأما الناس فقد أصبحوا، أيضاً، على دراية بهذه الأساليب الخبيثة..»

– ألا تهمك نشر هذه الصور؟!

– أترضون أنتم عن أنفسكم، عندما يُقال بأن المخابرات الإسرائيلية تستخدم هذه الأساليب الخسيسة؟

– نحن لا نرضى هذا، ولكن ماذا نفعل إذا اضطررنا لذلك؟ ماذا نفعل إذا واجهنا عنيداً مثلك؟ «لا يفل الحديد إلاّ الحديد».. ولا يكسر رأس عنادك إلاّ نحن.. تأكد تماماً، بأن لدينا الكثير من المعاول التي تحطم العناد. عاجلاً أم آجلاً، ستأتي أنت وترجونا بأن تعترف.. أنا أنصحك بأن تختصر الطريق.. ماذا قلت؟ تكلم..

«إنهم لا يملون من التهديد والوعيد.. (قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا)، (وما أصابكم من مصيبة في الأرض، ولا في أنفسكم، إلاّ في كتاب من قبل أن نبرأها).. (ليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين).. أنا لكم يا قتلة الأنبياء.. سأملأ صدوركم غيظاً، بإذن الله، وسأردكم على أعقابكم خاسئين».

– هل تعلم يا عامر شيئاً الآن عن صورتك عند صاحبيك.. لقد سبقوك إلى السجن هناك.. لقد زرعنا في عقولهم بأنك أنت الذي اعترفت عليهم.. أريناهم إياك، وأنت معنا على طاولة واحدة، وكأنك في حفلة عيد ميلاد، إنهم الآن، هناك يتحدثون عنك.. لقد حرقت نفسك دون فائدة.. أنقذ نفسك قبل فوات الأوان.. بإمكانك أن تخرج منها بطلا.. بإمكاننا إنقاذك من هذه الورطة، وسحبك منها كما تسحب الشعرة من

العجين..

كان عامر يسمع هذه الأراجيف، وفي نفس الوقت يسيح في معاني الآية الكريمة: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا)..

«إنهم شكل متطور من أشكال الشيطان.. ها هم يتخمون أذني بكل دعاوى الفقر.. فقر الأمن الاجتماعي والتخويف بإشاعاتهم الكاذبة.. فقر المكانة في قلوب الناس، وقلوب أصدقائي بشكل خاص.. إنهم لا يدركون أن الفقر الوحيد الذي يصيبني في مقتل، هو فقر الإيمان بربي، وبرسالتي في الحياة، وما عدا ذلك، فأنى لي دخول هذا السوق.. سوق المساومة الرخيصة..»

استطاع كبير المحققين أن يقنع رؤساءه أخيراً، بضرورة استثناء عامر من القرار الذي يقضي بعدم استخدام التعذيب الجسدي.. رفعوا تقريراً كاذباً، أكدوا فيه بأن قنبلة موقوتة تقف خلف عامر.. وأن هناك حياة أبرياء معرضة للخطر.. وألحقوا في تقريرهم ما وصلوا إليه من اعترافات على عامر.. وبأنهم استخدموا معه كل أساليب اللاعنف، فلم تجدِ معه شيئاً.. ولم يكن استصدار قرار بهذا الخصوص أمراً سهلاً، إذ إنه يحتاج إلى موافقة جهات عليا .. كان نتاج تجاربهم، يقضي بأن المصلحة في عدم استخدام العنف الجسدي، إلاّ أن هذه الحالة المستعصية اعتبروها خروجاً عن القاعدة، وأن احتمالات تكرارها نادرة جداً..

سحبوا عامراً من زنزانته بطريقة عنيفة.. ألقوا على عينيه النظارة السوداء.. قيّدوا يديه للخلف، ثم تركوه واقفاً في الممر الموصل إلى مكاتب التحقيق.. ومرّت ساعات ثقيلة كأنها سنين. تدق دقائقها في رأسه وتسحق أعصابه، وهو ينتظر. بعد ساعات جاءه صاحب الوجه

الصخري.. رفع النظارة بقسوة بالغة، ثم حدج في وجه عامر وقال:

– هذا أنت.. هيا.

وجرّه من تلابيب قميصه إلى مكتب التحقيق.

– لك عندي بشارة أيها البطل الذي بطل مفعولك..

ويتابع:

– مبروك.. أخيراً، وصلتنا الموافقة على أن نريك نجوم الظهر.. هل رأيت في حياتك نجوم الظهر؟ اليوم سنريك إياها.. سؤال أخير، وشدّ وتيرة صوته:

– هل تريد أن تتكلم؟

– ....

– إذن، فأنت مصر على العذاب..

وانطلقت راحة يده الغليظة لتستقر على وجه عامر بكل ما أوتي من قوة.. كانت ضربة مفاجئة زاغ لها بصر عامر.. ثم وجد هذا القرد النتن يقف، ويقبض على كتفي قميصه، ثم يجبّه باتجاهه بقوة، فتصطك عظام كتفه بقبضتيه.. ثم يمد له قليلاً، ويعيد الكرة ثانية وثالثة وعاشرة... تتخلخل رقبته ويرتج دماغه.. أصبح عامر يشعر وكأنه كتلة من الألم. حركوا أوجاع صدره، وأضافوا إليها هذا الهزّ اللعين.. تحوّل إلى خرقة تذروها رياح أحقادهم، بكل عنف وضراوة. الألم يتحرك بشدة، وعامر يجأر إلى الله بشكل أشد.. أحياناً يشد أوصال نفسه، ويبدو قطعة متماسكة، وأحيانًا تتناثر الآلام في جسده، وتنقطع بجسده السبل.. ثم تجد هذا القرد يتعب من كثرة الهز فيتوقف لاهثاً.. فيسأل بصوت مرهق:

– ماذا قلت.. ألا تريد أن تتكلم؟ أمامك طريق طويل من هذا العذاب..

- ....

- لا تريد أن تتكلم.. حسناً..

ويعود للهزّ، وكأن عامراً نخلة مستعصية، يريد منها الثمر عنوة..

ثم تجدهم يتناوبون عليه.. الواحد تلو الآخر.. خمسة أحاطوه، وتناوشوه كما تتناوش الضباع فريستها.. يتوقفون عن هذه اللعبة المقيتة، ثم يشدون عليه ألسنتهم. عواؤهم من كل جانب.. تهديد ووعيد.. خمسة تطاولت عليه حناجرهم.. ليلة كاملة بين هزّ ووخز وعواء. وكان يصرخ أحياناً من الألم الشديد، بمقولة بلال الخالدة: أحد، أحد. يتماوج الضنك بين أضلاعه، وتتواجه أمواجه مع أمواج المعاني التي تتجلّى في القلب.. أحد، أحد.. بادئ ذي بدء، يتذكر بلال والصخرة التي كانت تلقى على صدره في لهيب الصحراء.. أحد، النافع الضار، المعز المذل.. أحد، المفرّج والميسر والحافظ.. أحد، تتوحد فيه المشاعر، الآمال وانتظار الفرج والخلاص من هذه الثلة النكدة، من أشباه البشر.. كان عامر وكأنه يشعر بآلام المخاض التي تشبه المولود السعيد.. مخاض عسير إما أن يكون مولوداً لي: نصر مؤزر عليهم، أو لا سمح الله أن يكون مولودهم، وهو ما يبغونه من اعتراف عامر..

غيّب الألم، ونعيق هذه الغربان المتواصل النوم من جفون عامر.. كانت حرباً ضروساً، عاد يخوضها من جديد.. تذكر أساليبهم في تجربته الأولى، والتي ترتب عليها خمس سنوات من السجن.. كم عضّه الألم، طيلة هذه السنوات، على اعترافاته التي أدلى بها حينها.. أما هذه المرة فإنها المؤبد.. إنها حرب وجود الآن، إما أن تكون أو لا تكون.. ويناجي عامر مولاه مستغيثاً، ومستعيناً، وراجياً أن يثبته وينصره على القوم الكافرين. في اليوم التالي، عندما أعادوا عليه الهزّ من جديد، كانت

قبضاتهم تضرب كتفيه المتورمتين، فكان الألم لا يوصف.. ويصيح عامر بأعلى صوته: أحد، أحد.. يهزّ أعماقهم بها.. يشهقون ويتساءلون:

– ماذا تعني: أحد، أحد..؟!

يغيظهم ويجيب:

– أحد، الله ربي.

– أنت واحد مجنون.. لا يوجد عقل.. رأس بلا مخ.. أصحابك اعترفوا عليك.. ماذا تنتظر؟ أولاً وأخيراً، سنصل إلى ما نريد.. مهما كلف الأمر سنخرج ما في بطنك.. الأيام بيننا طويلة.. لن نتركك..؟! أو؟! ولا خيار ثالث. هنا في هذا المكتب لفظ «عبد الصمد حريزات» أنفاسه الأخيرة. كان بإمكانه أن ينجو بريشه، ولكن أبى إلاّ الموت.. هل أحدثك عن أخبار الذين قضوا نحبهم بين أيدينا؟

«الأغبياء يتصوروننا نحسب ألف حساب للموت مثلهم.. (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة). كم أنا مشتاق للقاء الله.. يا رب، إنهم أعداؤك، يمارسون علينا شتى أنواع الإجرام.. حالنا بين يديك.. انتقم لنا، وانتصر لنا، انتصارك لأحبابك على أعدائك..»

بعد حوالي يومين متواصلين، أعادوا عامر إلى كرسي الشبح.. كرسي روضة أطفال له ظهر حادة الزاوية.. تجلس عليه، فتتوقف الدماء في العروق. ظهرك إلى الأمام، مع تقييد يديك إلى الخلف.. إنه عذاب بطيء، يسافر بك سفراً شاقاً، لساعات طوال تغيب فيها شمس إنسانية الإنسان.. تنكسف، وتغرق في بحر لجّيّ من الظلمات. تهاجمك أشباح الظلام، وخفافيش هذا الليل الطويل من كلّ جانب.

وتعالى صفير صدر عامر.. يضغط على نفسه، ويحاول إخفاء أنينه، كي لا يشجعهم، ويفتح شهيتهم للوصول إلى مبتغاهم.. الصدر بدا

وكأنه مثخن بالجراح، والهواء تثاقل حتى أصبح كالحجارة، أو أشد قسوة.. في اليوم الثالث من هذه الهجمة الشرسة، قادوه إلى مسلخهم.. وجد كرسياً للأطفال هناك.. أجلسوه عليه بعد أن جعلوا ظهره للطاولة التي يجلس خلفها أحد المغضوب عليهم..

– قبل أن نبدأ.. هل عندك شيء تحب الحديث عنه؟ انتبه.. بانتظارك وجبات دسمة.. حفلتنا سعيدة هذه الليلة.

ثم قبض على يديه من القيد الحديدي.. رفع قليلاً إلى أعلى.. انحنى ظهره تلقائياً إلى الأمام.. رفع أكثر حتى وضعها على سطح الطاولة الكبيرة.. بزغت الكتفان، ودارا دورتهما في مكانهما.. طار الألم من جنباته.. شعر وكأنه معلق من كل جانب، وكل عضو فيه له نصيب من هذا العذاب المضني.. ثم تناوشوه بوخزاتهم من كل جانب.. تخترق عظم القفص الصدري، وتضرب في المعدة وتطرق على الرأس.. تشد الشعر، وضربات كلماتهم تعوي فوق رأسه..

– كم ستصمد.. نحن وإياك والزمن طويل.. شهر، شهران، ثلاثة.. النهاية معروفة، هكذا أنتم دائماً.. نفس الطراز.. لا يعترف إلاّ بعد العذاب، لماذا لا تختصرون وتوفرون على أرواحكم كل هذا؟ أنا لا أدري..

وكان عامر يحافظ على بنيان معنوياته شامخاً، ويضيء جنباته باستشعار معية الله الكاملة، وهو يناجي مولاه: «يا الله يا مغيث، أغثني.. يا حيّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام».. وكان عندما يصرخ في وجوههم: أحد، أحد، يستصغر الذي يواجهه، خاصة، عندما تمر في مخيلته صورة بلال بن رباح، ومشاهد عذابه على رمال الصحراء المستعرة.. ويستذكر حديث الذين نشّروا بالمناشير، ومُشّطوا بأمشاط

الحديد، فيخفض رأسه..
واشتد بعامر «الشبح» حتى وجد برد اليقين، وهو يجأر إلى الله من كل أعماقه.. شدة الألم كان يقابلها بشدة الاضطرار إلى جانب المولى عزّ وجل.. شفّ جوهره، وطارت روحه لتنسّم رائحة الجنّة، وتتراءى له الشهادة.. كان من شدة النعاس يطرق النوم عليه أبوابه، رغم الألم والعذاب. وكان يرى فيما يرى النائم إذا أخذته سِنة من النوم صور من سبقه من الشهداء إلى دار الحق.. كان يراهم، وهم يتوجهون إلى الله بخالص دعائهم.. يستبشرون به كواحد من الذين لم يلحقوا بهم، وقد شارف على الانضمام إليهم.. استبشر بدعائهم وشفاعتهم، وبات ينتظر اللحاق بهم، وهو على أحرّ من الجمر..
لم يفلح معهم هذا «الشبح» المجرم، رغم ثورة الآلآم القديمة والجديدة، وتناثر أمواج الألم على كل أجزاء الجسد كأنها بركة ماء، قد ضربتها ريح السموم العاتية.. واجه عامر كل هذا، بتصعيد اعتصامه بالله.. ألم يقابله أمل في الله..؟ حضور مع الله، يعمّد قوائم صموده، ويسمو بروحه عن معاناة الجسد..
ويتواصل الليل بالنهار.. ليل طويل في اليوم السابع لهذه الوجبات، التي كانت تتوالى عليه بكل ضراوة.. شدوا القيد الحديدي على يديه، حتى كادتا تنفجران من ضغط الدم في عروقهما.. دقائق معدودة، وهم يعووون فوق رأسه:
– هذه عملية تورث لك الشلل.. حياتك بعد اليوم بيدين مشلولتين.. هل تريد أن تتكلم.. اقرأ الفاتحة على يديك.. تكلم يا ابن .....
كان عامر يعرف بأن رأس مال هذه اللعبة القذرة دقائق معدودة، ثم يحلون القيد.. إنها محسوبة بدقة، لأنهم لا يريدون ترك أثر للتعذيب

على الجسد.. واستمروا في ضغطهم الشديد الذي يتعاود على هذا الجسد على مدار الأربع والعشرين ساعة.. ولقد أشعلت روح التحدي في صدره، وتحوّلت إلى صخرة، تتكسر عليها كل عصيهم، مهما كانت قاسية وشديدة..

لم يتبق أمام المخابرات أي مجال، لأن يستمروا أكثر من هذا.. ظهرت آثار الشلل على يده اليسرى من الشبح، وضغط القيد والهزّ. تجمدت عروق أكتافه.. هزل جسمه، وذهب صوته.. ثم إنه وجّه لهم سهام صمته القاتلة.. يأّسهم بنظراته الحادة، وهزمتهم ابتسامته الساخرة.. أفزعهم جسده الذي صبّوا عليه كل أشكال سخافاتهم.. دب الهلع في نفوسهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب. احتلت قواعد نفوسهم أشباح الهزيمة، يصرخ عامر بصوته المفقود في وجوههم، ويطالبهم بالعلاج والتحويل إلى المشفى، ووقف هذه المهزلة. تخلوا عن التهديد والوعيد لفشلها الذريع.. كادت دموع الهزيمة، وسوء المنقلب تتقطر بها عيونهم. رآهم أذلاء، رغم جبروت أساليبهم الجهنمية..

لم تسمح لهم حالة عامر الصحية بالاستمرار في هذا العنف، وكذلك اصطدامهم العنيف بصخرة عناده، فعادوا أدراجهم للعنف النفسي والحرمان الطويل من النوم، ورغي الكلام الثقيل فوق رأسه.

لم يجد النوم لعينيه أي سبيل على مدار عشرة أيام خلت.. كادت أحياناً تداهمه سِنة من النوم، فيغرق فيها بحلم عميق، يصحو قبل أن تكتمل صوره على وخزاتهم وهزاتهم، التي تعيده من عالم النوم المريح. يصل أحياناً إلى حافة الهلوسة. يشطح بكلمات متناثرة.. فتتعلق آمالهم لانزلاق لسانه بكلمة مما يريدون، إلاّ أنه يطوّف بهم في عوالم بعيدة عمّا يريدون.. يراهم هو، بطرف عينيه البئيستين، فيستطيب أشكالهم المتوترة.. يتحامل

على نفسه، يستعين بالله بكل ما تكتنزه روحه من معاني الإيمان، فيقف في برزخ فاصل بين اليقظة والنوم، تعوّد أن يجد راحته فيه من ضنك وجوههم.

كانت أيامه مع هذه الثلة النكدة في عسقلان عصيبة.. وعاد النوم ليقف على رأس سلم أولوياته، اعتلى عرش آماله، وأصبح جنته في دنياه من جديد.. وعادت ساعة النوم لتعدل الدنيا وما حوت.. وقفت أعصابه متحفزة، وأصبحت كلماتهم، كأنها حجارة، تقذف على طبول، نصبت في تجويف رأسه..

بعد هذه الأيام العشرة، أطبق على نفسه الصمت، وصمم على أن لا يُسمعهم أي حرف، ولو قطعوه إرباً.. دارت ساعات يوم بأكملها، وهو ملتزم بالصمت التزاماً حديدياً.. يئسوا منه، فأعادوه إلى الزنزانة حيث ألقى بجسده، ونام نومة أهل الكهف.

في صبيحة اليوم التسعين للاعتقال، تم تحويله إلى السجن، سجن عسقلان، الذي يرقد بجوار مركز التحقيق اللعين.. ولج السجن الذي قضى فيه سابقاً عدة سنوات.. داعبت أشعة الشمس الربيعية جفونه، واستنشق من فضاء واسع يملؤه هواء لذيذ.. نظر إلى أعلى، فوجد زرقة السماء بصفاء ألق، تحتضن قطيعاً من الغيوم الصغيرة.. دار به رأسه، فأرجع البصر إلى جدران السجن العالية، والبوابة الكبيرة التي تفغر فاها، وتستعد لابتلاعه..

دفعوه داخل السجن، وأحكموا إغلاق الباب المدرع.. وجد نفسه يدور حسب روتين السجن المعروف.. إلى المخزن؛ لاستلام ملابس الأسر القاتمة، ثم مقابلة مع ضابط أمن السجن؛ للإجابة على بعض الأسئلة السخيفة، ثم يحمل صرة ملابسه الجديدة على كتفه، كما هو حال

اللاجئين، ويلج الساحة التي يدور فيها عشرات الأسرى في متنفسهم اليومي.. خطوات معروفة لعامر من قبل.. لم يجد فيها ما يلفت النظر، اللّهم إلاّ الوجوه التي تبدلت في هذه الساحة.. كم من الشباب تقلبوا في هذا السجن، وهو مكانه لا يتزحزح؟

توقفت حركة الساحة، واصطف الأسرى على محيط الساحة، ثم تناولته أيديهم، وأحضانهم بعناقات حارة، وكان أشدها حرارة، ممن كان يعرفهم من قبل، حتى إذا اشتبكت يداه مع يدي نبيل وإبراهيم، كان العناق الأشد لوعة والأعمق وجداناً.. ارتعشت القلوب، وبرقت العيون بدموع، جمعت في ثناياها فرحة اللقاء، وأسى الموقف، ومعاناة رحلة العذاب التي مرّوا بها، ثلاثتهم..

في رحى السجن

كان عامر في أيامه الأولى في السجن يتحرّق على بعض الهدوء الذي يساعده على التقاط أنفاسه.. المعارف كثر، وحديثهم معه له شجون.. والآخرون يفتحون أبواب التعارف، وبناء العلاقات الاجتماعية.. كانت تفاعلاته على مدار الساعة لا تنقطع إلاّ في حالة النوم، أو الصلاة، وما عدا ذلك، فالأجواء مفتوحة والقلوب متعطشة للمزيد من الانسجام وتبادل الأشواق.. في الساحة، وفي الغرفة التي يرقد فيها ستة عشر أسيراً.. يوّزع عامر نفسه بين الأصدقاء، ولا يجد لنفسه أي وقت.. وكان يود لو يسارع إلى نبيل وإبراهيم ليعرف أين الخلل. أخبره أحد أصدقائه القدامى في التنظيم، بأن العلاقة بين إبراهيم ونبيل متوترة، وكل منهم يتهم الآخر، أنه قد اعترف عليه.. وأن نبيلاً يعيش في حالة من الهوس.. ما زال يتصور أنه قد يكون عند «العصافير» في هذا السجن الواسع. قال عامر في نفسه: «هذه إذاً.. أوهموهم بأن كل واحد منهم، قد

اعترف عن الآخر، كما حاولوا معي.. كم حذرتهم من هذه المصيدة الخطيرة.. حسبنا الله ونعم الوكيل.»

ومع هذا فقد كانت مهمة عامر الأولى هي الوقوف على حقيقة الأمر.. «كيف اعترفنا؟ وكيف وصلوا إلينا واعتقلونا؟!»

كان نبيل مع عامر في نفس الغرفة: غرفة «٤»، أما إبراهيم فقد كان في غرفة «١٥»، وهي موجودة في قسم آخر.. وتفصل بين القسمين ساحة السجن التي يدور الأسرى في رحاها أربع ساعات من نهارهم كل يوم. في الليلة الثالثة، وبعد أن خفت قليلاً وطأة المصافحات والمجاملات، وعندما كان نبيل معه على برشه وحيداً بعد صلاة العشاء.. قال عامر بصوت خافت:

– علينا تقييم الأمور يا نبيل.. ما الذي جرى لنا؟! لا بد من وضع النقاط على الحروف؟

تلفت نبيل حواليه. ودارت عيونه كمن يخاف من ظله وهمس:

– الحذر، الحذر يا عامر.. العيون التي ترقبنا كثيرة.. ما أدرانا؟ ألا يوجد من بين هؤلاء «عصافير»؟!

«الآن تأتي لتحذر من «العصافير» يا نبيل.. بعد أن «وقعت الفاس في الراس»؟ ولكن هذا مؤشر جيد..»

– ألا تطمئن لي يا نبيل؟!

سأل مستغرباً:

– الثقة بيننا كما تعلم مئة بالمئة، ولكن ما يدريني، وأنت الآن، في السجن، أنك سترفع ما أقوله لك إلى التنظيم.. والتنظيم قد يكون مخترقاً.. أتتصور أنهم يتركون تنظيماً في السجن، دون أن يزرعوا فيه مجموعة من «العصافير»؟

«الحذر جيد ولكنه عند نبيل أصبح هوساً.. لقد أحدثت «العصافير» في نفسه ثغرة كبيرة، والله المستعان..»

– صديقي العزيز نبيل.. اسمعني جيداً.. يجب أن تكون العلاقة بين الحذر والثقة واضحة، بشكل جيد.. الحذر لا ينفي الثقة، والثقة لا تنفي الحذر..

– اسمح لي بأن أكون معك صريحاً.. هذا كلام نظري، سرعان ما يهوي ويتحطم على أرض الواقع.. كيف تريد أن تجمع بين الحذر والثقة؟

«أنا لا أكاد أصدق.. نبيل صاحب الوجه الهادئ، والمزاج المرح، ينقلب هكذا إلى كتلة من الشك والغضب.. هل أحبطته هذه التجربة المريرة؟»

– المسألة في غاية البساطة.. لماذا تنظر لها بكل هذا التعقيد؟

– كيف تكون بسيطة، والسرّ عندما يخرج من صدرك إلى شخص آخر، سرعان ما ينتشر كانتشار النار في الهشيم؟

– قلت لك المسألة في غاية البساطة.

– كيف؟ نوّرني يا عامر؟ لقد انتظرت سماع كلماتك طويلاً.. أنا في حيرة من أمري.

ابتسم له ابتسامة حانية احتضن بها آلامه.. وضع راحة يده على كتف صديقه وقال:

– سرّك لا تخرجه من صدرك.. «صدور الأحرار مقبرة الأسرار».

– كيف يكون الحذر ممن تثق فيه.. حذر وثقة في الوقت نفسه؟

– القاعدة التي درسناها جيداً؛ ما لا تعلمه المخابرات عنك، عليك أن لا تطلع عليه أحداً، مهما كان، ولو كان في غاية الثقة..

– حتى أنت يا عامر؟

- نعم حتى أنا..

لفّهم الصمت بعض الوقت ثم تابع عامر:

- إنك تحافظ بذلك على سرك، وتضمن عدم تسرب أي شيء للمخابرات. قد يحدث الثقة من هو غير ثقة، أو من لا يحافظ على السرّ. لذلك قالوا: إذا كان السرّ عند واحد، فحدّث آخر فإنّه يصبح عند..

- اثنين.

- لا.. يصبح عند أحد عشر. واحد ضع بجواره واحداً. وإذا حدث الواحد أحد عشر شخصاً، فإن السر يصبح عند..

- مئة وأحد عشر..

- وهكذا يا نبيل. لذلك فأنا أريد أن أسمع منك ما هو الآن، عند المخابرات.. لا أريد أية زيادة عن «إفادتك» عندهم.

تنفس نبيل بعمق وانجلت سحابة الكدر عن وجهه الأبيض.. عاد له هدوؤه، كبحيرة زارها ربيع هادئ بعد شتاء طويل عاصف.. عيونه الصافية تألقت من جديد، وراحت تبث شجونها العميقة..

- لو أني التزمت بهذا الكلام لما وقعت هذه الوقعة الرهيبة، بل قل إني التزمت الصمت طويلاً.. لم أتفوه لأحد بأية كلمة شهراِ كاملاً.. جربوا عليّ عدة «عصافير»، وعادوا لأسيادهم من عندي خائبين.. أساليب في غاية الخبث، لم تجد معي نفعاً..

- هل استخدموا معك العنف الجسدي يا نبيل؟

- باشروا بالتحقيق بداية بالترغيب والترهيب، ثم بالوعيد والتهديد وأساليبهم الخبيثة وأدواتهم الماكرة.. أما العنف الجسدي فلم يستخدموه معي بتاتاً.

- لحد الآن أنا في غاية الاستغراب. لم أصادف أحداً في الزنازين

استخدموا معه العنف الجسدي على الإطلاق.

– أنا يا نبيل مارسوا معي العنف النفسي شهرين ونصف تقريباً، ثم انطلقوا معي بالعنف الجسدي.. قالوا إنهم أخذوا لي إذناً خاصاً.

– ولكن على أي أساس..؟ ألم تحدثنا في الخارج عن أساليب التعذيب الجسدي؟ لم أكن متهيئاً لهذا الخبث، كما كنت متهيئاً للعنف الجسدي.

– المسألة واضحة. القاعدة العامة عندهم هي: منع استخدام العنف، وفي حالات خاصة، جداً، يحضرون لها إذناً خاصاً. يقولون عنها هي الحالات التي يستدعي التحقيق معها، وقف عمليات عنف على حد تعبيرهم.

– وأنت.. ألست مثلنا؟

ردّ عامر ضاحكاً:

– من قال لك ذلك؟ أولاً: أنا لست ارهابياً. ثانياً: مصلحتهم تقتضي استخدام العنف النفسي دون الجسدي، لأن تجربتهم معي في المرة السابقة، تقول لهم بأن العنف يولّد عندي المزيد من العناد، وهذا من فضل الله عليّ. ولكنهم عندما وصلوا إلى طريق مسدود، اضطروا لاستصدار هذا الإذن.

– ولكني وجدت شباباً، قضاياهم مثلنا تماماً، أو أشد خطراً، ولم يستخدموا العنف الجسدي.

– تجدهم قد حصلوا على اعترافاتهم من غير الحاجة إلى هذا العنف. تأكد تماماً أن تجربة الأساليب النفسية الجديدة ما زالت في بداياتها، وفي حالة فشلها، فلن يتوانوا عن العودة للأسلوب القديم. وأنا أرى أن الأسلوبين ألعن من بعضهما البعض. ها هو هنا، الأسلوب الجديد يؤتي أكله، ويتهاوى فيه الشباب كما تتهاوى الفراشات في النار.

– كم أود يا عامر أن أسمع قصتك معهم.. ثلاثة شهور، وأنت تقف سندياناً تحت مطارقهم.

– سأحدثك بالتفصيل المريح، ولكن أعطني ما عندك، أولاً.

– استلموني منذ لحظة الاعتقال الأولى، تكالبوا عليّ ليل نهار. كانت الأيام الأولى عصيبة، إذ حرمت فيها من النوم.. تواصل الليل بالنهار وهم يتناوبون عليّ بهدف إرهاقي، وإيصالي إلى حالة من الانهيار النفسي، تمكنهم من اقتناص بعض الكلمات.. وكانوا أحياناً يجتمعون دفعة واحدة.. يطلقون تهديداتهم، ويتوعدونني بالتعذيب العسكري وإخراج كل ما لديهم من عنف وعذاب. ثم بعد ذلك أخذوا يتركونني وحدي في الزنزانة السوداء، لأيام طويلة، وأنا أنتظر وأترقب خطوتهم القادمة.. إهمال متعمد يحرق أعصابي، ويضغط على أنفاسي، وأنا لا أدري أي مصير ينتظرني، وماذا يعدون لي من مكر وخبث وعذاب..

– وماذا حدث بعد ذلك؟ وكيف وصلوا إلى الاعتراف؟

– سأحدثك حديثاً لم أحدثه أحداً قبلك، وأرجو أن يبقى بيننا.. هل تتصور نبيلاً، وهو يعترف عند «العصافير»؟ كم حذرتنا منهم؟ كم وصفتهم لنا؟ إلاّ أنني وقعت؟

– وكيف كان هذا؟

– مرت ستون يوماً من هذا العذاب. أدخلوا عليّ عدة مرات «عصافير» يحاولون جرّ لساني. باءت كل محاولاتهم بالفشل. كانت القاعدة التي علمتنا إياها تتألق في وجداني: أتتذكر يا عامر ماذا كنت تقول لنا: «إياك أن تطلع سرّك على أحد، ولو كان أباك.. لا يحق لأحد أن يسألك عن أسرارك، ولو كان الأمين العام للتنظيم.. لو كان السبب الذي يدعوك لكشف كلمة من أسرارك، هو ضياع فلسطين، فإياك أن تفعل..»

صمت قليلاً، وكأنه يخرج الكلمات من بئر أساه، ثم تابع:

– هذا الفهم النظري يا أخي، لقد كان شاخصاً أمامي طيلة فترة التحقيق.. تصور أن «عصفوراً» استخدموه أثناء الاعتقال.. «عصفوراً» من اللحظة الأولى.. اعتقلوه معي في نفس السيارة.. كان يئن بحواري ويناجيني قائلاً: ما هذه المصيبة.. لقد وقعت فوق رأسي مصيبة لا تقدر على حملها الجبال. لا أدري كيف وصلوا لي، وكأنهم يتعاملون مع الجنّ. وصولهم لي دليل قاطع على أن جهودهم الاستخبارية لا تخطئ.. تصور إني مطارد منذ ثلاث سنين.. الله أكبر والله المستعان.. وأنت إن شاء الله بسيطة؟ سألته: ما هي؟ قال مصيبتك؟»، «عصفور» غبي أرسلوه لاستغلال لحظات الاعتقال الأولى. أيتوقعون من استغلالهم لعنصر المفاجأة انهياراً سريعاً عندي؟ أجبته: أنا لا يوجد عندي أية مصيبة.. زيارة سريعة، وأعود إلى لبيت، إن شاء الله.. واستمر مسلسل «العصافير» معي.. واحد طالع، وواحد نازل. يرسلونهم عندما يتركونني في الزنزانة وحدي. ثم جلبوني فجأة، إلى مكتبهم اللعين. سألوني عن المعلومات الاجتماعية، والتي تؤخذ عادة نهاية التحقيق، ثم قالوا لي بأنهم قرّروا إنزالي إلى السجن.. ومن زنازين المسكوبية، نقلوني في «بوسطة» خاصة نحو الشمال، حيث معتقل مجدو.. ركبت هودجهم الحديدي، بعد أن كبّلوا يديّ وقدميّ.. ثبتوا على عيني نظاراتهم السوداء، فلم أر في جنبات الطريق سوى السواد الحالك. ضاعت عليّ مشاهد خلابة، كنت أحاول رسمها في خيالي، إلاّ أنها هربت مني بعيداً أمام جحافل الظلام..

وصلت سجن مجدو.. دخلت الغرف.. مساجين عاديين. حياة السجن كانت عندهم كما كنت أتصورها.. «فورة» يدور فيها الأسرى دورة

دائرية.. ساعتان قبل الظهر وساعتان بعده.. جلسات ثقافية، مواعظ دينية، قوانين إدارية تنظيمية، الصلاة جماعة في وقتها .. وجدت نفسي أنخرط بسرعة مع هذه الأجواء الطيبة. وكان هناك نداء خفي ينطلق من أعماقي ويحذرني ويقول لي: «هذه هي غرف العصافير يا نبيل.. إنهم يجيدون التمثيل.. يجيدون تقمص وتجسيد حياة الأسرى.. حالاً وقولاً وفعلاً.. يتمظهرون بها على أكمل وجوهها، لأنها هي دون أدنى فرق.. فعّلت نفسي مع هؤلاء الناس، مع حذري الشديد.. ومضى أسبوع كامل دون أن يسألني أحد عن شيء، حتى كدت أن أتحلل من حذري، ثم جاءني أمير الغرفة عندهم، يقول لي بأن مجلس الشورى يطلب القصة الاعتقالية، وأن أبيّن لهم ما اعترفت عنه عند المخابرات، ولا داعي لذكر أي شيء مما لم أعترف به.

– وكتبت لهم؟

– نعم.. لم يكن هناك لدي ما أكتبه.. وطالما أنهم لا يريدون أي شيء لم أعترف به، فالمسألة في مسارها الصحيح.. كتبت لهم معلومات عامة عن اسمي، وسكني وتاريخ اعتقالي، ومجرى التحقيق معي.. أصدقك القول: إن الثقة بهم بدأت تجد طريقها في نفسي، بعدما طلبوا مني أن لا أكتب إلاّ ما اعترفت عنه.. ومضى أسبوع آخر من الحياة الرتيبة والاحترام الذي يزرع الثقة والمحبة. الابتسامات الجميلة والمصافحات الحارة والهدايا التي تأتي من كل صوب وحدب.. أصبحت، وكأني معهم أسرة متحابة متعاونة يسعى بذمتها أدناها .. جاءني مرة أخرى أمير الغرفة، وقال لي إن بريداً «كبسولة» قد وصل من الأقسام الداخلية للسجن، من التنظيم، يقولون فيه «إن هناك مخاطر أمنية على الإخوة في الخارج.. وتعلم أن التنظيم داخل السجن غير معني بأي شيء لم

يعترف عليه المعتقل، لا من بعيد ولا من قريب، ولكنها هذه المرة الضرورة الأمنية، والمخاطر التي قد تلحق بالإخوة في الخارج.. فالضرورة لها أحكام.. وسلمني ورقة، فيها مجموعة أسئلة قريبة جداً من أسئلة المحققين مع بعض التمويه..

– وأجبتهم عليها؟!

– احترت في الأمر.. حنانهم وطيب معشرهم ودفء قلوبهم، تصب عواطفي باتجاه الاستجابة لمطلبهم.. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنّ نداء عقلي تحت لهيب الحذر، تدفعني بقوة للرفض، وبفضل الله تغلب نداء الحذر.. كتبت لهم ما كتبته من قبل، مع التأكيد بأنه لا يوجد عندي أي شيء سوى هذا.. وبعد يومين أعادوني للتحقيق في «بوسطة» خاصة، سارت بي مباشرة من «مجدو» إلى «المسكوبية».. وأعادوا عليّ اسطوانتهم من جديد.. لم تُجدِ شعوذتهم معي شيئاً.. قالوا لي ذات يوم: إن الصليب يريد مقابلتك.. خرجت من جحورهم القاتمة إلى النور والهواء العذب.. أدخلوني إلى أحد المكاتب الفرعية، فوجدت غادة شقراء من ذوات العيون الزرقاء في انتظاري.. قابلتني بترحاب شديد ثم فتحت دفترها.. سألت عن اسمي ثم قالت بعربية ضعيفة:

– نحن الصليب الأحمر. نريد مساعدتك.. نطمئن عليك، ونطمئن أهلك.. كيف حالك الآن؟! هل يضايقونك بشيء؟

– نعم، ألا ترين حالي؟

ثم سألت طويلاً عن أشكال التعذيب.. أخبرتها وكتبت طويلاً..

– ماذا تريد من الأهل في الخارج؟

– بلّغي سلاماتي.. قولي لهم إني بخير.

– أية رسالة ترغب في توصيلها، فأنا مستعدة..

– لا يوجد شيء غير السلامات.

– لا تخف.. نحن الصليب.. تفتيشنا ممنوع. الأوراق تخرج معنا، ولا يحق لهم الاطلاع عليها.. إذا أحببت أن تكتب لأهلك أو أصدقائك بخط يدك، فأنا أوصلها في اليوم نفسه.. كل شيء يصلهم بكل أمانة ودقة. وتأكدت من خلال هذه العروض السخية بأنها «عصفور» جاءتني على صورة صليب.. لقد تيقنت بأني في غرف «مجدو»، كنت عند «العصافير» وقلت في نفسي: لقد تخطيت كل مراحل «العصافير».. لن يستطيع شيطانهم أن يخدعني مهما تفنن «العصافير» في أدائهم.. أصبحت على ثقة بأن خطوة «العصافير» قد فشلت فشلاً ذريعاً.. لن يعيدوا الكرّة معي بنفس هذا الأسلوب.. تجاوزت الشهر.. حوّلوني إلى السجن بعد أن مدّدوا اعتقالي وأعطوني «شيكاً مفتوحا»*.. نفس ملامح السجن وسِحَن الأسرى.. السجن يدور دورته، ويستقبل ضيفه الجديد بكل حفاوة، إلاّ أنني هذه المرة، وجدت حالة من الانضباط التنظيمي، أكثر صرامة.. بصدق شعرت بهيبة للتنظيم هناك، وكأن عصا التنظيم تطارد الجميع.. وجدت إبراهيم قد سبقني إلى لسجن.. تعانقنا بحرارة، ورحنا نتحدث عن كل شيء، خاصة أيامنا في التحقيق.. أسرّ لي إبراهيم.. الحمد لله لم نعترف عن شيء. قلت له: وأنا كذلك. لنثبت على هذا يا إبراهيم.. وحدثته قصتي عن «العصافير»، وكيف نجاني الله من خبثهم. في اليوم التالي، أخبرني إبراهيم أنه يعمل في الجهاز الأمني للتنظيم وأن هذا سر بيني وبينه.. سألته مباشرة: ألا تضع احتمالاً بأن هؤلاء «عصافير»؟ فأجابني بكل ثقة واتزان: هذا مستحيل بدليل أنهم لم

* الشيك المفتوح: تمديد مفتوح للمعتقل.. يُعطى عادة بعد انتهاء التحقيق.

يطلبوا مني أية معلومات سوى القصة الاعتقالية، والتي لم أكتب لهم فيها أي شيء.. ومع هذا فإنهم صادقوا عليها ولم يسألوا.. إنهم ثقات يا نبيل، وهذا هو السجن الحقيقي.. أرى أن كثرة «العصافير» الذين مروا عليك فترة التحقيق قد وضعوك في حالة من الهوس. سألته: وهل تسمي الحذر هوساً يا إبراهيم؟ فقال: إذا كان في غير محلّه، فهو هوس بكل تأكيد.. ثم إنك قد مررت على «العصافير» والآن، وبعد أن أخذت شيكاً مفتوحاً في التمديد، فلا مجال للشك.. بعد عدة أيام جاءني إبراهيم يطلب مني كتابة تقرير أمني حول سبب الاعتقال. قال لي بأن التنظيم يريد أن يحدد سبب الضربة.. كيف تم اعتقالنا؟! ثم أثار الخوف في صدري عندما قال: التنظيم يشك بأن هناك اختراقاً في مجموعتنا.. هناك شخص، شاهد ملكي، تبرع للمخابرات بمعلومات خطيرة أدت إلى اعتقالنا.. التنظيم يريد أن يحدد من هو هذا الشخص، لذلك فقد قرّر أن يسمع من الجميع.. كلامه أثار الرعب في نفسي.. قلت أنا أتعامل مع ثقة، وهو إبراهيم، وإذا كان هذا التنظيم الذي يتعامل معه من «العصافير»، فهو الذي يتحمل المسئولية ودعوت الله أن تكون ثقتنا في محلها..

سأل عامر:

– وخرجت عن القاعدة التي تحفظها جيداً؟ «إياك أن تتكلم، ولو كان أبوك..» كيف نبشت مقبرة أسرارك؟؟

– أصدقك القول: إنه الخوف.. لقد رأيت عصا التنظيم، وكأنها تطاردني.. أحاديث إبراهيم عن اختراق المجموعة، وسبب اعتقالنا، دفعتني للدفاع عن نفسي، وكتبت تقريراً مفصلاً.. استلّه إبراهيم، وسلمه كما هو إلى التنظيم.

- وكان هذا التنظيم «عصفوراً» بعينه..

- بكل أسف.. ولم نشك أنهم «عصافير»، حتى قال لي إبراهيم إن مجلس الشورى يريد أن يسمع منا مباشرة لفض الخلاف، إذ إنه اكتشف بأن هناك تضارباً في الأقوال بين تقارير الداخل، وتقارير الخارج.. أثار هذا الحديث استفزازي، وقلت له إني مستعد لمواجهتهم.. وفعلاً ذهبت مع إبراهيم في زيارة إلى الغرفة المجاورة، وجدنا فيها ثلاثة ملثمين.. صافحتهم وجلست. قال لي إبراهيم: هؤلاء هم مجلس الشورى، وسلم أحدهم لإبراهيم ورقة فيها عدة أسئلة، وجعل إبراهيم يسأل وأنا (محسوبك) أجيب بكل طلاقة.. وما إن فرغنا من الإجابة حتى تعالت قهقهاتهم من وراء اللثام.. كشفوا وجوههم، فإذا هم المحققون.. وأسقط في أيدينا. تمنيت حينها لو تنشق الأرض وتبتلعني.. ومن هناك حملونا على جناح السرعة إلى مكاتب التحقيق.. قررت الإنكار، إذ أنني أعلم أن إفادة «العصافير» لا تسمن ولا تغني من جوع إلاّ أنهم..

وقاطعه عامر:

- إلا أنهم استطاعوا أن يدخلوا بينكم، وأن يضربوا قلوب بعضكم ببعض.. يقولون لك: إبراهيم اعترف عنك، ويقولون لإبراهيم: نبيل اعترف عنك.

- هذا ما حصل بالفعل، ولكن أساس البلاء هو إبراهيم.. ألا تتفق معي؟

- أتريدني أن أحكم من خلال طرف واحد..؟ يجب أن أسمع من إبراهيم كما سمعت منك.

- ويبقى أن نصل، أيضاً، إلى قصة اعتقالنا الحقيقية.. عرفنا كيف

اعترفنا، والآن يجب أن نعرف كيف اعتقلونا، وكيف وصلوا إلينا؟
- اعترفتم أنتم، أما أنا فلا علاقة لي بقصة الاعتراف هذه.
- ولكننا اعترفنا عليك..
- أتشهد في المحكمة على هذا؟
- بالتأكيد لا..
- هذا الأمر يفيدني كثيراً..

* * *

في اليوم التالي كان لا بد لعامر أن يسمع من إبراهيم.. التقاه صباحاً في الساعة الرياضية. كان إبراهيم يتصبب عرقاً، وكان من الواضح أن رياضته من النوع العنيف. نصف ساعة من الركض السريع، ثم يتحوّل إلى «العقلة» والضغط والتمارين التي لا تدع في عضلاته شاردة أو واردة، إلاّ وتستنهض قواها على أفضل ما يكون.. لم يكن في الخارج يأبه بأية رياضة جسمية.. كان على ثقة عالية، واعتداد كبير بقوة نفسه وجسده، وكان لا يشعر بأية حاجة لتنمية قدراته الجسمية، أما الآن فإن تجربة التحقيق التي مرّ بها، أشعرته بالضعف، وبأنه بأشد الحاجة لأن يكون قوياً في كل شيء، حتى تكون له الغلبة في الجولات القادمة.
كان عامر يركض بجوار صديقه إبراهيم. كان ضمن طابور، يدور دورة في الساحة التي تحيط بها أقسام السجن، على ارتفاع طابقين شاهقين من كل جانب.. سطح الساحة مسقوف بقضبان الحديد، سقفاً محكماً يعيق حركة الهواء المتسلل.. وكان أريج حقول البرتقال يصر على ولوج هذه الساحة، ثم يسارع لإنعاش الصدور المكبوتة..
كانت أواسط نيسان أجمل أيام السنة حول هذا السجن.. الأرض تخرج كسوتها الخضراء، والبرتقال تبتسم براعمه بزهورها التي تقيم

حفلات زفافها، وتستعد لولادة أجنتها.. ونسيم البحر القريب يداعب الكائنات، ويبث شجون البحر بأعذب الألحان.. والأسرى القابعون خلف الحديد وقهر السجان لا ينالهم من كل هذا إلاّ أن يسرح أحدهم بخياله، أو يشنّف أنفه لبعض الأريج المتسلل..

همس عامر في أذن إبراهيم:

- متى سنقيّم الأوضاع يا إبراهيم؟

- متى تشاء.. أنا جاهز.

- سمعت من نبيل بالأمس.

- بالنسبة لي أنا كتبت مذكراتي.. كتبت كل ما جرى لي في التحقيق بأدق التفاصيل.

- رائع، هل بإمكاني...

- بكل تأكيد.. لم أطلع عليها أحداً، لغاية الآن.. أنت أول من يقرؤها..

ومع انتهاء ساعة الرياضة، وجد عامر إبراهيم يحضر له دفتراً.. عاد به إلى غرفته.. تمدد في برشه، وأخذ يقرأ، ويبحث في ثنايا السطور عن مبتغاه.. مرّ على شرح تفصيلي قريب جداً من قصة نبيل.. نفس الأساليب التي استخدمت مع نبيل.. عدم النوم لأيام طوال والإرهاق النفسي، التهديد والوعيد، «العصافير» وحيلهم الخبيثة أثناء وجوده في الزنازين، ثم وجده يتحدث عن اعترافه بعد سبعة وثلاثين يوما، عن تهمة بسيطة اعتقد أن بإمكانه إغلاق الملف بها.. يقول في كتابته:

«عندما تكالب عليّ خمسة محققين في آن، وبعد أيام عديدة مضنية من القهر والعذاب.. كانت أعصابي متوترة، وكأني أجلس على برميل بارود، وكان الإعياء قد بلغ بي كل مبلغ.. تشتت الذهن، وخوى القلب من عزائمه، وانهار اللسان ليتشبث بأي شيء، لعله ينجو من هذا العذاب

الأليم.. اعترفت لهم بأني كنت منظماً أيام الإنتفاضة الأولى.. ظننت بأني سأغلق الملف على تهمة، لا يتجاوز حكمها السنة.. خلاصاً من سياط التعذيب النفسي التي بتّ غير قادر على تحملها.. أغلق هذا الباب وأستريح. إلاّ أني فتحت على نفسي بهذا الاعتراف أبواب جهنم.. اعتبروا هذا الاعتراف استفتاحاً مباركاً، وأنه بوابة الكنز الذي ينشدونه.. أصروا على المزيد وضاعفوا ضغطهم.. أصبحت في حالة من الضنك لا يعلمها إلاّ الله.. العذاب الذي تضاعف، والعذاب النفسي نتيجة هذه الهزيمة التي مُنيت بها. لقد اكتشفوا بهذا الاعتراف حلقة الضعف، التي بإمكانهم كسر بقية الحلقات من خلالها، أو أني بمثابة البقرة الحلوب التي بإمكانهم حلبها وقت ما شاءوا.. أصبحوا يريدون مني وبكل إلحاح، اسم التنظيم، ومن نظمني، ومن أعرف في التنظيم، وماذا فعلت، وماذا فعل غيري، وأسئلة لا نهاية لها.. كان لا بد لي من إعادة الاعتبار، وصد هذا الهجوم العنيف.. استعنت بالله، وشعرت حينها بأن ليس لهذه الورطة التي ورطت بها نفسي إلاّ الله، واللجوء إليه.. سألت الله الثبات على قول واحد هو: «كنت منظمًا في فعاليات الإنتفاضة الأولى، ولم أعد أذكر الآن، شيئا من هذا، بعد هذه السنوات الطويلة..» وأخذت بعد ذلك عهداً على نفسي، أن لا أفتح لهم أي باب جديد، إن أية كلمة تعني فتحاً مبيناً لهم، وفتحاً لأبواب جهنم بالنسبة لي.. بعد أيام عديدة من الثبات على هذا القول.. قالوا لي إنك تكذب علينا، ولا بد من عرضك على «ماكنة كشف الكذب».. رفضت في البداية، إلاّ أنهم تحدوني وقالوا لي: إن كنت صادقاً، فأثبت لنا ذلك من خلال عرضك على هذا الجهاز.. رجعت إلى ما سمعت عن هذا الجهاز من قبل، وقلت لنفسي من السهل التحايل عليه.. بإمكاني تركيز تفكيري في أمر آخر، غير

الذي يسألونني عنه.. بإمكاني تحريك إصبع قدمي، كما قالوا لي من مرّوا بهذه التجربة.. وافقت لهم وقبلت تحديهم.

شرحوا لي شرحاً مفصلاً عن هذا الجهاز: قالوا إنه لا يخطئ، وإن طريقة عمله تعتمد على ما يحدث في الجسم من تفاعلات داخلية، وإنه جهاز صادق، ومعتمد عند المخابرات، وإنه لا مجال فيه للعب أو التلاعب لأنه يقوم على أساس علمي متطور، وأنه على ضوء نتائجه يتقرر إغلاق الملف وإنهاء التحقيق.. لقد صدقتهم مرتين في وعدهم هذا بإنهاء التحقيق.. مرة عندما اعترفت لهم بالتنظيم، والمرة الثانية عندما وافقت على آلة فحص الكذب هذه.. وقد اكتشفت أن وعودهم ما هي إلاّ الجزرة التي تسبق العصا . إذا أكلت جزرتهم فجهز عظامك وجلدك لعصيهم.

طرح عليّ المحقق مجموعة أسئلة، وقال لي إنها هي نفسها التي سنسألك إياها عند جهاز الصدق!

– هل أنت مع الانتفاضة المسلحة.

– هل أنت تنتمي إلى مجموعة عسكرية؟

– هل قتلت إسرائيليين؟

– هل اعترفت بكل ما لديك؟

ثم أعطاني ورقة وقلم، وقال لي:

– اكتبها وأبقيها عندك.. أنظر؛ أنا متساهل معك.. هل رأيت أحداً يعطي الأسئلة قبل الامتحان؟

مضى يوم كامل وأنا في الزنزانة أقلب هذه الأسئلة في رأسي.. أقول إن هدفهم هو حصر ذهني فيها ، حتى إذا سئلت عنها ، وأنا مربوط في جهازهم اللعين، أعطت أعصابي وأحاسيسي ما هو مطلوب منها ، فيظهر ذلك على شاشة الجهاز.. فالحل إذاً، أن لا أفكر فيها ، وأن أشرد

بذهني إلى ميدان آخر. أحاول، ثم أجد نفسي، وقد عدت، وغرقت فيها «من ساسي لراسي».

بعد قرابة أربع وعشرين ساعة من محاضرتهم عن هذا الجهاز، سحبوني من الزنزانة إلى مكتب التحقيق.. سألني لعينهم الأكبر:

– هل تريد أن تقول شيئاً قبل الفحص؟ هل يدور في رأسك شيء؟ أنا لا أريد لك أن تفشل في الفحص.. هذه فرصة ذهبية، وأتمنى لك فيها نجاحاً باهراً.. فرصة لن تتكرر.. إذا أخفيت عنا شيئاً، فأخبرنا عنه قبل أن يكشفه الجهاز..

قلت له بكل ثقة واتزان:

– قلت لكم كل ما عندي.

قام بي إلى غرفة مجاورة.. أول ما يلفت نظرك صورة رئيس كيانهم التي تنظر بشماتة وحقد.. طاولة تحمل أدوات هذا الجهاز.. شاشة حاسوب، صندوق حديدي تنطلق منه عدة أسلاك كهربائية، كآلة تخطيط القلب.. يجلس خلف هذه الطاولة رجل متوسط العمر.. يلبس معطفاً أبيض، كطبيب ينتظر زبائنه في عيادته..

نهض هذا الرجل.. صافحني، وهو يتكلف ابتسامة ثعلب ماكر. قال لي المحقق: هذا هو الخبير الذي يقوم بالاختبار. سأل الخبير عن اسمي، وحالتي الاجتماعية، وراح يشرح عن الجهاز المعصوم الذي لا يخطئ! ثم أشار لي لأجلس على كرسي كبير تابع للجهاز.. تناول سلكاً موصولاً بصندوق العجب، وتحمل نهاياته قطعتي ألمنيوم صغيرتين، قام بربطهما على اصبعين من أصابع يدي اليسرى، وقال:

– هذه تحس العرق، لأن الإنسان عندما ينفعل بشيء ما يفرز العرق، فتظهر ذبذبات انفعالاته على شاشة الحاسوب.. ثم سحب سلكاً موصولاً

بجهاز قياس ضغط الدم.. لفّها على عضدي.. ثم نفخ هواءها، ونفّس منه، كما يفعل عادة عند قياس الضغط، وقال:

– هذه لقياس ضغط الدم، لأنه يزيد وينقص حسب انفعالات النفس الداخلية، فيظهر هذا على الشاشة.. وسحب خرطومين ربطهما حول القلب على الصدر، واحد أسفل والآخر أعلى، وقال:

– وهذه لمعرفة دقات القلب وذبذباته بكل دقة.. هذه أمور يا إبراهيم غير إرادية في جسم الإنسان.. والجهاز يعمل من خلال قياس هذه العناصر؛ فالإنسان، مثلاً، عندما يكذب يخاف، وعندما يخاف تزيد دقات قلبه، وتزيد افرازات العرق، وضغط الدم.. الجهاز يرصدها بدقة، ويرسمها على الشاشة رسماً بيانياً، مع بيانها رقمياً.. وحتى يطمئن قلبك لكلامي لنقم بهذا الفحص التجريبي. خذ. هذه ورقة، وهذا قلم. أكتب أي رقم ولا تريني ما تكتب.. أكتب أي رقم تريده؛ من رقم واحد إلى رقم سبعة..

كتبت رقم «٥»..

– أجبني الآن يا إبراهيم، واكذب علي عندما أسألك عن الرقم الذي كتبته.. هل كتبت رقم «١»؟

– لا.

ويصمت برهة، قدرتها بعشرين ثانية، ثم يسأل:

– هل كتبت رقم «٢»؟

– لا.

يصمت، ويتابع:

– هل كتبت رقم «٣»؟

– لا.

– هل كتبت رقم «٤»؟

- لا.
- هل كتبت رقم «٥»؟
- لا.
- هل كتبت رقم «٦»؟
- لا.
- هل كتبت رقم «٧»؟
- لا.
- لقد كذبت عليّ يا إبراهيم عند رقم «٥»؟ كيف عرفت هذا؟
حرك الشاشة بحيث تمكنت من رؤيتها، فرأيت رسماً بيانياً منتظماً إلاّ أنه عند طرفه الأخير يرتفع إلى أعلى.
- أرأيت كيف أن الرسم البياني اختلف عند رقم «٥».. قلت لك هذا الجهاز حساس، ويكشف الكذب بدقة متناهية.. وأنت جسمك ممتاز.. شفاف وقابل للفحص..
ثم قام بكتابة الأسئلة نفسها التي أعطاني إياها المحقق، وقال:
- أريد أن أسألك هذه الأسئلة عدة مرات، بحيث يختلف الترتيب في كل مرة.
ويقوم بوضع أسئلة بسيطة بين الأسئلة المهمة، بحيث يكون جوابها: نعم. مثل: هل يوجد كرسي في الغرفة؟.. اجلس جلسة مريحة، لا تتحرك، انظر إلى الأمام..
- كم عمرك؟ استعنت بالله، وقررت أن أهرب بفكري إلى أبرز المواقف المؤثرة في حياتي.. وفاة أمي، زواج صديقتي، حادث سير مريع.. ومشاهد مفرحة ومحزنة كثيرة، حضّرتها في مخيلتي..
- إثنان وعشرون عاماً..

قلتها، وأنا أفكر بوفاة أمي..

– هل أنت متزوج؟

وينتظر حوالي نصف دقيقة بين السؤال والآخر.

– لا.

– هل أنت مع السلام؟

– نعم.

– هل يوجد كرسي في الغرفة؟

– نعم.

– هل أنت مع الإنتفاضة المسلحة؟

– لا.

– هل أنت معتقل؟

– نعم.

– هل أنت تنتمي إلى مجموعة عسكرية؟

– لا.

قلتها بعد أن تذكرت أحد المشاهد المفرحة..

– هل شاركت في عمليات عسكرية؟

مع مواصلة تركيزي لمشاهد العرس..

– لا.

– هل يوجد طاولة في هذه الغرفة؟

– نعم.

– هل قتلت إسرائيليين؟

رحلت إلى يوم نجاحي في الثانوية العامة، ابتسمت وقلت:

– لا.

- هل اعترفت بكل ما لديك؟

- نعم.

- هل عملت عملاً غير أخلاقي تخاف أن يعرفه الناس؟

- لا.

ثم أعاد علي ترتيب الأسئلة بترتيب آخر مرات أربع. أخذ نفساً طويلاً ثم قال بنبرة تملؤها الثقة المتعمدة:

- عندك يا صديقي، خلل واضح في سؤالين بالتحديد.. عليك أن تخلص نفسك مع المحقق، وأنا بانتظارك.. النتائج واضحة ودقيقة. أنت تعرف بماذا كذبت، وبماذا صدقت.. أنا، فقط أقدم لك النصيحة، ثم يتصل بالمحقق الذي يأخذني إلى مكتبه، قائلاً وهو يبتسم ابتسامة صفراء:

- كنت متأكداً بأنك ستفشل في الامتحان.. الآن لدينا دليل قاطع على هذا.. أعضاء جسمك هي التي تشهد عليك.. إنها أعضاء غير إرادية.. دمك شهد عليك، قلبك وعرقك شهد عليك.. أعصابك تُدينك، ماذا نفعل لك الآن.؟

أدركت خطورة هذه اللعبة.. تذكرت ما كان يُقال قبل أن أعتقل: لا يمكن أن يخرجوك منها إلاّ كاذباً.. إن هدفهم هو الحصول على اعتراف كامل من المعتقل.. ومعلومات أخرى حساسة قد يستغلونها في التحقيق.. ماذا يريدون من هذا السؤال الأخير: هل عملت عملاً غير أخلاقي..؟ كان حاضراً في ذهني أن ماكنة الكذب هذه لا تعتبر دليلاً، وأن بإمكاني إنكار نتائجها، فصممت على أقوالي الأولى.. تنظيم قديم من أيام الإنتفاضة الأولى.. زادوا من ضغطهم عليّ، وضاعفوا من تعذيبهم.. كانت أياماً عصيبة، آذوني فيها طويلاً، خاصة ليالي البرد القارس،

الذي تفطرت له معدتي.. لم يكن هناك أصعب من هذا البرد. كانوا يتركونني في زنزانة صغيرة، لها نافذة تنفث عليّ زمهريرها، بكل ضراوة، وأحياناً كانوا يتركونني في مكتبهم، مع فتح المكيّف على البارد.. تتحول الغرفة إلى ثلاجة، أتجمد فيها، ويقشعر جلدي.. ألجأ إلى حمى الرحمن، حاول جهدي طمأنة قلبي، وإشعاره ببعض الدفء المعنوي.. أجأر بالدعاء، أذكر الله بصوت عال، وأتلوى على نفسي.. أضغط بعضلات جسمي المنهكة ملتمساً لبعض الحرارة، وأحياناً من شدة البرد، أتمنى عودتهم لمتابعة التحقيق.. وكانوا، عندما يعودون، يسارعون بقلب حركة المكيف من البارد إلى الحار، فأنتقل من سيبيريا إلى الأغوار.

كان عامر يقلّب أوراق إبراهيم.. يسير مسرعاً عند أشكال التعذيب، التي تكررت معه ومع نبيل، ويبحث بين السطور عمّا يوصله إلى تحديد الخلل. يتابع القراءة:

«ثم حوّلوني إلى غرف «العصافير»، قاتلهم الله. كنت حذراً جداً، ومتوقعاً لهذا الفصل من المسرحية.. وكان ذلك مرتين: المرة الأولى إلى غرف «مجدو»، فاكتشفتهم رغم كل محاولات التمويه التي أتقنوها، على أكمل وجه، ولكن المرة الثانية في غرف «عسقلان». كنت أعتقد أني انتهيت من قصة «العصافير»، ثم إنهم حولوني إليها بعد اعطائي من المحكمة «شيكاً مفتوحاً».. وكذلك جاءت النقطة الحاسمة أنهم لم يطلبوا مني أي شيء على غير عادة «العصافير».. أسبوع كامل، لم يطلبوا فيه سوى القصة الاعتقالية.. كتبت لهم أية حاجة. قبلوا ذلك، ولم يراجعوني بشيء.. ثم بعد ذلك عرضوا عليّ العمل في الجهاز الأمني للتنظيم.. ترددت بداية، ولكني تحت وقع الحياء من معاملاتهم اللطيفة، وعشرتهم الطيبة، لم أستطع رد هذا الطلب.. نسخت لهم كراسة، وبعض التقارير

ووجدت فيها روح التنظيم، دون أدنى فرق.. شعرت أني في جهاز تنظيمي محترم فلم أتوانَ عن تقديم خدماتي له..

بعد ذلك كانت الطامة الكبرى، عندما وصل إلينا نبيل، فكلفوني بعد عدة أيام، بأخذ قصته الاعتقالية.. لم يكتفوا بما كتبه نبيل، فأرسلوني إليه كي أقنعه، وأزيل الشك من رأسه.. وهذا ما حصل بالفعل.. توجهت إلى نبيل بهذا الأمر، بالتي هي أحسن. كتب المسكين معتمداً على ثقته بي، وكان لقاؤنا في اليوم التالي مع مجلس الشورى الملثمين.. وجهوا له عدة أسئلة من خلالي.. أجاب عليها بطلاقة، مدافعاً عن نفسه، أن يكون سببا للضربة والاعتقال.. كُشف اللثام، فوجدنا أنفسنا وجها لوجه أمام المحققين، وقد سجلوا، على جهاز تسجيل، كل كلمة قيلت.. ألا يحق لنبيل الآن أن يشك في صديقه إبراهيم؟ ألا يصاب بالهوس، بعد أن تجاوز كل عقباتهم اللعينة.. التعذيب النفسي بكافة أشكال الخبث، وخبث «العصافير»، بأشكال متعددة، ثم يأتي ليقع على يدي أعز أصدقائه..؟

اعترفت أنا بتهمة بسيطة قديمة، جاء نبيل ليخرج كل ما في صدره، وعن طريق من؟ عن طريقي أنا .. مهدت له الطريق، فانطلق فيها بأقصى سرعة.. يا لي من غبي أحمق؟».

طوى عامر أوراق إبراهيم وهو في غاية الغضب.. كان الألم يعتصر صدره، ويمور به موراً عظيما..

«بعد كل التحديات التي زوّدتهم بها، وعن «العصافير» بالتحديد، تأتي نهايتهم على هذه الأيدي المجرمة.. أصبح الخلل واضحاً وضوح الشمس.. «العصافير» أو «الصراصير»، ولكنهم، وللحق نقول: صراصير ذكية، ومدربة، تتقن دورها بمهارة فائقة.. تنقض على فريستها بكل

أدوات المكر والدهاء.. يا حسرتك التي تنوء عن حملها الجبال يا عامر.. المجموعة التي دربتها بيديك، وزودتها بالمعرفة الأمنية المطلوبة.. العناصر المنتقاة على أفضل وجه.. تصمد تحت التعذيب المخابراتي صمود الأبطال، وتنهار عند «العصافير» نهاية المطاف.. لذلك، فإنهم يصرّون على الاستمرار في أسلوب «العصافير» منذ عشرات السنين، مع تحديث مكرهم ودهائهم.. ولذلك تحوّلوا عن التعذيب الجسدي، لأن هذه الحيل بالنسبة لهم أجدى وأنفع.»

* * *

ودارت أوراق إبراهيم في رأس عامر دوراناً عجيباً.. وكان أكثرها غرابة ذكر يومياته، وهو يعمل في جهاز الأمن عند «العصافير»، قبل أن يكتشفهم. أحد الشباب، بعد أن ناول إبراهيم اعترافه وقصته الاعتقالية، قال له إنه على استعداد تام لقيام بعملية استشهادية بعد اطلاق سراحه مباشرة، إذا وجد تنظيماً يساعده.. وما كان من إبراهيم إلاّ أن نقل هذا العرض إلى مسئوله في التنظيم: «العصافير».

وحادثة أخرى، عندما اعترف أحد الشباب في قصته الاعتقالية عن حيازة متفجرات عند أبيه، وبمشاركة عمّه وأمه.. سلم إبراهيم هذه الاعترافات التي تؤدي إلى حبس العائلة، وانضمامها إلى هذا الابن البار..

ومرّ على إبراهيم شباب، لم يسمع أحد منهم في حياته قط عن «العصافير».. كان أحدهم يكتب دون تردد.. لا يبقي شيئاً من أسراره، إلاّ ويفصّله لهم تفصيلاً مريحاً، ومع بعض الزيادات والمبالغات أحياناً، حتى تظهر سمات البطولة بكل وضوح.. أحدهم كتب ليلاً، وعندما قام في الصباح تذكر شيئاً لم يكتبه، فطلب الدفتر ليضيف ما نسيه، وعلق

على هذا النسيان بقوله تعالى: (وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن اذكره)..
فعلا.. «شر البلية ما يضحك»..
بهذه الكلمات طوى عامر أوراق إبراهيم بحركة عصبية، يود بها لو يسحقها في قبضة يده، وطوى كذلك صدره على حزن عميق، وألم يكاد ينفجر في وجدانه من شدة الغضب، وقوة الغيظ، ولهيب هزيمة أصحابه..

* * *

في ساحة السجن، كان عامر يتوسط نبيل وإبراهيم، يذرعون الساحة بشكل دائري، ويحدثهم عامر حديثاً هادئاً.. يحاول فيه إعمال ما لديه من قوة ذهنية.. يضغط على عواطفه، يكظم غيظه، وتتكلم الحكمة على لسانه:

– أنقيّم تجربتنا بهدوء..؟ نقف على أخطائنا، ونزود بها إخواننا بما وصلنا إليه.. الكيِّس من اتعظ بالعبرة.. نحن حاولنا قدر استطاعتنا الاستفادة من تجارب الآخرين.. لنضع الآن، تجربتنا بين أيدي إخواننا للاستفادة منها.. لنتجرد من نفوسنا، وحظوظها الضيّقة، ولنحاول النقد الصريح الذي يضع أيدينا على الخلل.. المشكلة الآن، ليس أنا أو أنت؛ فكلنا وقعنا. نسلّم بما كتب الله لنا. نصبر ونحتسب، وفي نفس الوقت، يجب أن نحدد أين كان التقصير؟! حول التحقيق أنتم تثقون بتقييمي بعد أن سمعت منكما وأسمعتكما، أيضاً، ما جرى..

همهم الإثنان.

– بكل تأكيد..

– سأبدأ قبل أخطاء التحقيق بذكر أخطائي أولاً..

– أخطاؤك؟!

قالا باستغراب..

– نعم أخطائي.. لقد قسمت تجربتنا إلى ثلاث مراحل.. مرحلة الاعداد للعمل، ومرحلة العمل نفسه، ومرحلة ما بعد العمل؛ الاعتقال والتحقيق.. أما عن أخطاء ما قبل العمل؛ فقد تيقنت أن إعدادنا كان متعجلاً.. داهمتنا انتفاضة الأقصى، التهبت المشاعر الجهادية والوطنية.. بلغ سيل الإجرام اليهودي الزبى، فوجدنا أنفسنا نريد إيلامهم بأسرع وقت ممكن.. وحسب خبرتي السابقة؛ قمت وإياكم بمستلزمات الاعداد، ولكني الآن، أرى أنها لم تكن كافية.. لم ننضجها بشكل جيد، خاصة الجانب الأمني.. فمثلاً السيارة التي قمنا بها في العملية، اشتريتها من مصدر غير موثوق، ولقد حدثني أحد الإخوة، بالأمس، أن تاجر السيارات المسروقة هذا، قد اعتقلته أجهزة الأمن، بتهمة التعاون مع المخابرات الإسرائيلية.. لم يكن هذا معلوماً لدي، ولم أبحث فيه بشكل جيد.. ولقد كان هذا خطأ قاتلاً.. تصوروا، أنه بعد نجاح عمليتنا، توجهت وطلبت شراء سيارة أخرى.. ألا يُشك في أمر إنسان عادي، يشتري سيارتين مسروقتين، خلال فترة وجيزة، وقد يكون على علم بأوصاف السيارة التي قامت بالعملية، وأنها هي نفسها التي اشتريناها منه.. ومما يثبت لي هذا الخطأ القاتل، أنه هو الذي استدرجني خارج «بير زيت»، بحجة أن هناك سيارة في قرية «بيتين»، للبيع. وعندما انطلقنا لشرائها كانت المخابرات لنا بالمرصاد.. اعتقلوني، وأنا في طريقي إلى «بيتين».. عندئذ شككت به، والآن بعدما سمعت خبر اعتقاله هذا تيّقنت.

كان نبيل وإبراهيم يسمعان هذا الكلام، وكأنّ على رؤوسهما الطير..

– ونحن كيف شكّوا بنا؟ ولماذا اعتقلونا؟ نحن لا نعرف هذا التاجر، ولا يعرفنا؟

– علمت بأن هناك اعتقالات عشوائية جرت للكثير من الشباب، بعد

العملية مباشرة، خاصة نشيطي الإنتفاضة، وأنتم منهم.. هذا احتمال.. وقد يكون دافعهم لاعتقالكم، أن أحد عناصرهم يعلم أن لي علاقة بكم.. العلاقة العادية، في مثل هذه الحالات، قد تدعوهم إلى الاعتقال.. أو أن أحدهم رآنا معاً، بعد أن تركنا السيارة التي نفذنا بها العملية في أطراف البلد، وعدنا مشياً على الأقدام..

قال إبراهيم:

– وقد سمعت في الأخبار بداية الإنتفاضة، أن جهاز المخابرات الإسرائيلي قد أيقظ عناصره النائمة.. لقد شغّلوا أذنابهم وفتحوا عيونهم جيداً..

– نعم، هذا صحيح..

تابع عامر..

– الإعداد الأمني هذه الأيام، يتطلب أن يكون بمهارة فائقة.. العيون علينا كثيرة، والصراع صراع أدمغة، وخبرات أمنية قبل كل شيء. أنا محسوبكم، ومع خبرتي التي كنت أعتد بها كثيراً، دفعتني العجلة لشراء سيارة مسروقة، من إنسان يتعاون من المخابرات الإسرائيلية، على أغلب الظن، دون أن أحسب لهذا الأمر حسابه الكافي.. ثم هو نفسه، يستدرجني، تحت إغراء صفقة سيارة بسعر مغر، ليخرجني من منطقة «أ» إلى «ب»، وليجعلني أسير بقدميّ نحو القيد والاعتقال.

قال إبراهيم:

– هناك خطأ، أنا متوجس منه.. تذكر يا عامر عندما اتصلت بك على هاتف خلوي، وحاولت تلغيز كلامي، إلاّ أنه كان واضحاً.. نهرتني حينها، وأغلقت الخط في وجهي.. قد يكون الهاتف مراقباً؟

– بالتأكيد كان مراقباً.. أما عن الأخطاء أثناء العمل؛ فهناك احتمالات

كثيرة.. تذكر السيارة التي نفذنا بها العملية، ثم تركناها فترة طويلة في أحد الشوارع البعيدة.. ألا يثير أمرها هذه الشبهة؟! ثم، هل قمنا بمسح آثار بصماتنا قبل أن نتركها، ونتخلى عنها؟ وعند دخولنا شوارع البلد، وقبل توجه كل منا إلى بيته، سرنا معا مسافة طويلة، وكانت البنادق التي نحملها تثير الشكّ، رغم أنها كانت ملفوفة بأكياس كبيرة.. وكذلك هناك أمر هام، أضع عليه علامة استفهام كبيرة.. رجل كان يلحّ علي، ويعرض تبرعات مالية سخية، كي أقوم بإيصالها إلى المجاهدين حسب معرفتي. كنت أرفض، وأتهرب منه، لأنني لا أثق فيه.. عندما اشتريت السيارة استجبت لعرضه، وأخذت منه تحت ضغط الحاجة والضرورة، دون أن أتحقق من الثقة به!! موضوع المال وطرق تدبيره للعمل، ومصادر التمويل، يجب أن تكون في منتهى الدقة والحذر.. هذه وغيرها من الأخطاء علينا متابعة دراستها، حتى نصل إلى حقيقة الأمر.. أما عن التحقيق ومجرياته، فقد أصبح الأمر واضحاً..

قاطع إبراهيم قائلاً:

– دعني أبدأ بنفسي.. كان خطئي الأول عندما اعترفت لهم بالتنظيم القديم، كي أنتهي من عذابهم، وأغلق ملف التحقيق، لكنني فتحت على نفسي باب جهنم..

وتابع إبراهيم:

– وأما مصيبتي الكبرى فهي أن «العصافير» استطاعوا خداعي.. شغلوني معهم في جهاز أمنهم، وأنا أتصور أني أخدم التنظيم.. ليتني وقعت فحسب.. وقعت وأوقعت غيري.. يا لها من طامة كبرى.. سلمتهم رقبة نبيل.. تصور..؟

– لا عليك يا إبراهيم.. شيء وانتهى الآن.. المهم أن يتعظ غيرنا بنا..

قال عامر.

– وأنا، رغم لومي لك يا إبراهيم، إلاّ أنني أتحمل المسئولية عن انهياري التام، واستجابتي لخدعتهم التي خدعوك إياها..

ثم نظر إلى عامر نظرة إجلال وقال:

– أنت يا عامر الذي حافظت على ثباتك.. أنت انتصرت، ونحن انهزمنا..

– هذا من فضل الله أولاً، ثم إن السبب واضح.. أنا لم أعترف، لأنه لا يوجد عندي ما اعترف عنه..

قال ذلك مازحاً.. ضحك الجميع وقال نبيل:

– أتخشى أن نكون «عصافير»، أو أننا نعمل لحسابهم من حيث لا ندري؟

– لا هذه ولا تلك يا نبيل.. قل لي: هل تعتقد أنني أرى أنكم فشلتم في هذه التجربة فشلاً كاملاً؟

سارع نبيل في الرد:

– بكل تأكيد.. وهل نجحنا؟! وها نحن نستعد لحمل المؤبدات على كواهلنا؟!

– اسمعني جيداً يا نبيل.. إذا أردنا تقييماً شاملاً، فإننا بلا شك نجحنا في جوانب، وفشلنا في جوانب أخرى.. مسيرتنا معهم طويلة، وهي كمن يمشي في حقل ألغام.. ننجح خطوات، ونتعثر في خطوات أخرى.. المهم أن نتابع الطريق بكل ما نملك من خبرة، ومن إمكانات لتطوير هذه الخبرة.. انظر إلى «حزب الله» مثلاً، كيف تمكن من تحرير الجنوب اللبناني.. قل لي: كيف تم هذا؟ كيف كانت البداية، وكيف كانت النهاية؟ وكيف كانت مسيرته من البداية إلى النهاية.. والثورة الفلسطينية لها تجربة طويلة، وما زالت مسيرتنا مع هذا العدو، أيضاً، طويلة..

– هذا يتطلب أن نُعطي المعركة حقها.. وأن نطور أنفسنا من جميع الجوانب، خاصة الأمنية والخبرة التنظيمية والسياسية والعسكرية..

قال إبراهيم..

– وأهمها إعداد الشخصية الجهادية التي تملك الربانية الصادقة، والعزيمة القوية، والخبرة الواسعة... لا أن تنهار انهياراً سريعاً، سواء كان ذلك عند المخابرات أو عند «العصافير» مهما تفننوا في خبثهم ومكرهم..

قال نبيل:

– كلامكم هو نتاج التجربة.. إنكم الآن تتكلمون بلسان من جمع بين الفهم النظري والخبرة العملية، وشتان ما بين الأمرين في حالة الفصل بينهما. وأؤكد على ما قلته يا نبيل.. بناء الشخصية الجهادية من خلال التربية الجهادية التي تراعي تنمية القدرات العقلية والجسمية والروحية.. التربية التي تعتمد على مجاهدة النفس، وتدريبها على الشدائد. إنها تمتلك، بعد استواء هذه التربية على سوقها، العزائم القوية النبيلة القادرة على الصمود والتحدي وتحقيق النصر.

ثم إنهم سمعوا مكبرات الصوت بلغة عبرية بغيضة تعوي: انتهت «الفورة»، كل الأسرى على الغرف.. صافحا إبراهيم بحيوية دافئة.. توجه إلى غرفته، وتوجها إلى غرفتهما، حيث عاد عامر ليعد الأيام الصخرية من جديد.. حبسة أخذت بيده، وسافرت معه إلى المجهول.. لحظات ثقيلة وصعبة تئن تحت وطأة خمس سنوات؛ حبسته الأولى، التي تزيد خمسين.. تذكّره بلحظاته الأولى من تلك الذكريات، وتفتح أمامه مسيرة طويلة وحافلة بكل أشكال المعاناة.. معاناته هو، ومعاناة

أهله.. أمه وزوجته، وولده الذي سيرقب طفولته من وراء القضبان..
ولج غرفته الرطبة ذات النوافذ الضيقة والشامتة.. الباب الحديدي الثقيل الذي لا يعرف سوى أن يغلق فمه جيداً.. «الأبراش» الحديدية المتراصة كما القبور المهجورة.. ستة عشر نفراً أهل هذه الغرفة، وجدهم عامر يتحاورون بصخب ممزوج بالفرح، ومتلفع بالأمل الذي يرسل ضياءه من الوجوه والعيون اللامعة.. الكل يتكلم، والكل يسمع في آن واحد.

– الاتصالات جارية لعقد صفقة تبادل.

– المقاومة اللبنانية تعلن أن الصفقة لن تتم دون الأسرى العرب والفلسطينيين.

– ويطالب بمئة من الأسرى، مقابل إعطاء معلومات عن حالة الجنود الإسرائيليين.

– أنا أتوقع أن تتم الصفقة خلال هذا الشهر، وقبل العيد..

– أنا أعطيها ستة شهور.

– إذا تمت في سنة، فالأمور رائعة وعظيمة.

ابتسم قلب عامر لهذا الحديث.. حمد الله، ووجه شرائع قلبه إلى مولاه يا حيّ يا قيوم.. أنت اللطيف البَرّ الرحيم.. أنت ذو الجلال والاكرام.. لا يخفى عليك حالنا.. لا إله إلاّ أنت، يا مغيث أغثنا.. فرجاً من لدنك يا الله.. أسبغ نعمك، وأتم علينا رحمتك. كن لنا صاحباً في سفرنا هذا، وخليفة في أهلنا، واطمس على وجوه أعدائنا...

هذا الكتاب

يتحدث عن مواجهة لا بد منها.. مواجهة قد تُفرض على أي فلسطيني في أيّ لحظة من لحظات حياته وهو يرزح في اغلال هذا الإحتلال البغيض.....
تُعزل عن العالم لدرجة تظن فيهاأن عجلة الزمن قد توقفت،لاتعرف متى تطلع الشمس ومتى تغيب تصبح تحت رحمة من لا يرحم..
أمامك عدوك يمتلك كل الإمكانيات وأنت مجرد من كل السلاح سوى سلاح واحد من الممكن أن ينتزعه منك إذا سلمته له ومن الممكن أن تهزمه بل وتنتصرعلى كل أسلحته إذا تمسكت به، إنه حصيلة إيمانك .. إيمانك بالله .. بعدالة قضيتك... إيمانك هو الزيت والوقودلانتصارك على عدوك .. فتصبح إرادتك وقوتك أقوى من قوته .. يصبح قزماً أمامك يرغي ويزبد وتصبح عملاقاً أمامه تحتفظ برباطة جأشك.
معادلة صعبة وصعبة جداً لكن الكثير استطاع تحقيقها والكثير الكثيرقد خسرها..فأي الفريقين تكون؟!!!



الطبعة الثالثة